

**Humanities and Educational
Sciences Journal**

ISSN: 2617-5908 (print)



**مجلة العلوم التربوية
والدراسات الإنسانية**

ISSN: 2709-0302 (online)

معالم الشخصية المسلمة في أول ما أنزل من القرآن(*)

<https://doi.org/10.55074/hesj.vi57.1993>

نبيل محمود مفتاح إسكندر

أستاذ التفسير المساعد بجامعة إقليم سبأ

thecrsnabeel@gmail.com

تاريخ قبوله للنشر 10/9/2026

<http://hesj.org/ojs/index.php/hesj/index>

(*) تاريخ تسليم البحث 28/7/2026

(*) موقع المجلة:

العدد (57)، شهر نوفمبر 2026م
Issue (57) November 2026

735

مجلة العلوم التربوية والدراسات الإنسانية
Humanities and Educational Sciences Journal

معالم الشخصية المسلمة في أول ما أنزل من القرآن

نبيل محمود مفتاح إسكندر
أستاذ التفسير المساعد بجامعة إقليم سبأ

الملخص

يتناول هذا البحث دراسة معالم الشخصية المسلمة في أوائل ما نزل من القرآن الكريم، من خلال استقراء الروايات الواردة في بيان ابتداء الوحي، وتحليل السور المكية الأولى: سورة العلق (١-٥)، وسورة المدثر، وسورة المزمل، وسورة الفاتحة، في ضوء أقوال المفسرين، وكتب أسباب النزول، والسيرة النبوية، مع التركيز على البعد التربوي التأسيسي في المرحلة المكية.

وقد اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي الاستقرائي، مع عزو الآيات إلى سورها، وتخريج الأحاديث من مصادرها الأصلية، ونسبة الأقوال إلى أصحابها، والاعتماد على المصادر التاريخية الموثوقة، وخلص البحث إلى أن اختلاف الروايات في تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم هو اختلاف تنوع، يمكن الجمع بينه جمعاً علمياً يُبرز التدرج التربوي في الوحي، حيث ابتدأ ببناء العقل والوعي بالعلم، ثم انتقل إلى تحمّل المسؤولية والدعوة، وتكامل مع الإعداد الروحي والتزكية، وتُوّج بمعاني العبودية والهداية الجامعة.

وبين البحث أن أوائل الوحي شكّلت منظومة متكاملة لبناء الشخصية المسلمة، تقوم على التوازن بين العقل والروح، والعبادة والعمل، والفرد والمجتمع، وهو ما يجعلها أساساً صالحاً للاقتداء في مجالات التربية والدعوة وبناء الإنسان المسلم في العصر الحاضر.

الكلمات المفتاحية: الشخصية المسلمة، أوائل الوحي، السور المكية، التربية القرآنية، البناء التربوي.

The Characteristics of the Muslim Personality in the Earliest Revelations of the Qur'an

Nabeel Mahmood Muftah Escandar

Abstract

This study examines the features of the Muslim personality in the earliest Qur'anic revelations, through an analytical investigation of the reports concerning the beginning of revelation and a pedagogical analysis of the early Meccan surahs: Al-'Alaq (1-5) Al-Muddaththir, Al-Fātiḥah, and Al-Muzzammil. The study draws upon classical Qur'anic exegesis, books of occasions of revelation, Prophetic biography, and authentic historical sources, with a focus on the foundational educational dimension of the Meccan phase.

The research adopts a descriptive-analytical and inductive methodology, ensuring precise attribution of Qur'anic verses, authentication of Prophetic traditions from their original sources, and accurate attribution of scholarly opinions. The study concludes that the apparent diversity of views regarding the first revelation represents a diversity of perspective rather than contradiction, reflecting a deliberate pedagogical progression in revelation: beginning with intellectual and cognitive formation, advancing to responsibility and proclamation, reinforced by spiritual discipline, and culminating in comprehensive servitude and guidance.

The findings demonstrate that the earliest revelations established an integrated educational framework for shaping the Muslim personality, balancing intellect and spirituality, worship and action, and individual and communal responsibility-an enduring model applicable to contemporary educational and da'wah contexts.

Keywords: Muslim personality, early revelation, Meccan surahs, Qur'anic education, pedagogical formation.

مقدمة البحث:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أما بعد...

فإن القرآن الكريم هو المصدر الأول لبناء الإنسان المسلم، ومنهج الله الخالد في تربية الفرد والمجتمع، وقد نزل منجماً مراعيًا لأحوال الناس ومقتضيات الواقع، ومؤسسًا لبناء عقديٍّ وأخلاقيٍّ وتربويٍّ متين، وتُعدُّ المرحلة المكيّة بوجه خاصّ مرحلة التأسيس الأولى للشخصية المسلمة، حيث انصبَّ الخطاب القرآني فيها على ترسيخ التوحيد، وبناء الإيمان، وتهذيب النفس، وإعداد الإنسان لتحمل أعباء الرسالة.

وقد تميّزت السور المكيّة، ولا سيما سور المفصل، بعمقها التربوي، وقوة خطابها، وتأثيرها المباشر في النفوس، إذ ركّزت على القيم الكبرى التي تُشكّل جوهر الشخصية المسلمة، من صدقٍ، وصبرٍ، وخشيةٍ، ومراقبةٍ لله تعالى، وتحملٍ للمسؤولية.

وليس من قبيل المصادفة أن يكون أول ما نزل من القرآن الكريم آياتٍ تحمل في مضامينها دعوةً إلى القراءة والعلم، والقيام والإنذار، والاتصال بالله تعالى، بما يعكس المنهج القرآني في تربية الإنسان قبل تفصيل التشريعات. وانطلاقاً من ذلك، تتجلى أهمية دراسة أوائل ما نزل من القرآن الكريم، ولا سيما سور: العلق (١-٥)، والمدثر، والفاحة، والمزمل، بوصفها نصوصاً تأسيسية أسهمت في رسم معالم الشخصية المسلمة في بدايات الدعوة. ويسعى هذا البحث إلى إبراز تلك المعالم، وتحليلها، وبيان دلالاتها التربوية، اعتماداً على الروايات الواردة في بيان أول ما نزل، وعلى أقوال المفسرين، وكتب أسباب النزول، والسيرة النبوية، مع الالتزام بالدقة العلمية في التوثيق والعزو.

مشكلة البحث:

على الرغم من كثرة ما كُتب حول أوائل ما نزل من القرآن الكريم من حيث الروايات والترتيب الزمني، فإنّ جانباً مهماً ما يزال بحاجة إلى مزيد من العناية، وهو استقراء المعالم التربوية المكوّنة للشخصية المسلمة كما تتجلى في النصوص القرآنية الأولى، وربطها بسياقها المكّي ومرحلة البناء الأولى للإنسان المسلم. كما أنّ تعدد الروايات الواردة في بيان أول ما نزل من القرآن الكريم، واختلاف مناهج العلماء في الجمع بينها، يستدعي دراسة علمية تجمع هذه الروايات، وتناقشها، وتبيّن أثرها في فهم طبيعة الخطاب القرآني الأول وأبعاده التربوية.

ومن هنا تتحدّد مشكلة البحث في الحاجة إلى دراسة تحليلية تجمع بين الروايات الواردة في أول ما نزل من القرآن الكريم، وتستقرئ معالم الشخصية المسلمة في ضوء سور العلق، والمدثر، والفاحة، والمزمل، مع بيان دلالاتها التربوية في مرحلة الدعوة المكيّة.

أسئلة البحث:

يسعى هذا البحث للإجابة عن الأسئلة الآتية:

- ١- ما الروايات الواردة في بيان أول ما نزل من القرآن الكريم؟ وكيف يمكن الجمع بينها في ضوء كتب الحديث وعلوم القرآن وأسباب النزول؟

٢- ما معالم الشخصية المسلمة المستنبطة من أوائل ما نزل من القرآن الكريم، ولا سيما سور: العلق، والمدثر، والفاطحة، والمزمل؟

٣- كيف أسهمت هذه السور المكيّة الأولى في بناء الشخصية المسلمة من الجوانب الإيمانية والتربوية والسلوكية؟

٤- ما أبرز الدلالات التربوية المستفادة من أوائل الوحي، وإمكانات توظيفها في الواقع التربوي والدعوي المعاصر؟

أسباب اختيار البحث:

تتمثّل أسباب اختيار الموضوع فيما يأتي:

- ١- ما يُمثّله المنهج القرآني التربوي من أهمية بالغة في تربية الأجيال تربيةً نافعةً.
- ٢- الحاجة الماسة لدراسة قرآنية تتوافق مع الاحتياجات النفسية والعقلية للجيل الذي يعيش في طفرة تكنولوجيا المعلومات.
- ٣- ضرورة التجديد في فهم النصوص القرآنية والوسائل التربوية المستفادة منها خاصة في القرآن المكي.

أهداف البحث

يهدف هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- ١- جمع الروايات الواردة في بيان أول ما نزل من القرآن الكريم، واستعراض أقوال العلماء في ترتيب نزول الآيات والسور الأولى، مع بيان أوجه الجمع والترجيح بينها.
- ٢- استقراء المعالم التربوية المكوّنة للشخصية المسلمة من خلال أوائل ما نزل من القرآن الكريم، ولا سيما سور: العلق، والمدثر، والفاطحة، والمزمل.
- ٣- إبراز الخصائص التربوية للخطاب القرآني في المرحلة المكيّة، وبيان دوره في بناء الإنسان المسلم عقدياً وسلوكياً ونفسياً.
- ٤- تحليل أقوال المفسرين فيما يتعلّق بالآيات المدروسة، وربطها بالسياق التربوي لمرحلة الدعوة الأولى.
- ٥- تقديم رؤية تربوية منهجية يمكن الاستفادة منها في مجالات التربية والدعوة وبناء الشخصية المسلمة في ضوء الهدي القرآني.

أهمية البحث

تتجلّى أهمية هذا البحث فيما يأتي:

- ١- إبراز المنهج القرآني في بناء الشخصية المسلمة من خلال النصوص الأولى التي نزلت في المرحلة المكيّة.
- ٢- ربط أوائل الوحي بالبعد التربوي العملي، واستقراء معالم الشخصية المسلمة في ضوء السور المدروسة.
- ٣- الاستفادة من نتائج البحث في مجالات التربية والدعوة وبناء الإنسان المسلم المعاصر.

حدود البحث:

الموضوعية: يقتصر البحث على سور: العلق (١-٥)، والمدثر، والفاطحة، والمزمل.

المصدرية: القرآن الكريم، وكتب الحديث المعتمدة، والتفاسير، وأسباب النزول، والسيرة النبوية.

المنهجية: التركيز على الجانب التربوي دون التوسّع في القضايا الفقهية الخارجة عن موضوع البحث.

منهج البحث:

- اعتمد البحث على المنهج الوصفي التحليلي، وذلك من خلال.
- عزو الآيات القرآنية إلى سورها وأرقامها توثيقاً دقيقاً.
 - تخريج الأحاديث النبوية من مصادرها الأصلية المعتمدة وذكر درجتها، ما لم تكن في الصحيحين أو أحدهما.
 - نسبة الأقوال والآراء إلى أصحابها من المفسرين والعلماء.
 - الاعتماد على مصادر التاريخ والسيرة الموثوقة في بيان سياق النزول وأحداث المرحلة المكّية.
 - تحليل النصوص القرآنية في ضوء أقوال المفسرين، واستقراء الدلالات التربوية المستنبطة منها.
 - كما استعان البحث بالمنهج المقارن عند عرض الأقوال المختلفة ومناقشتها وترجيح ما يظهر رجحانه بالدليل.

الدراسات الحديثة:**أولاً: كتاب معالم الشخصية المسلمة: الدكتور عمر سليمان الأشقر**

- هذا الكتاب واحد من أهم ما كتب في هذا المجال في العصر الحديث وقد تحدث فيه المؤلف عن الجوانب المختلفة للشخصية المسلمة وما ينبغي أن تكون عليه فبدأ:
- ١- المعلم العقدي والایمانی: يركز على أهمية العقيدة الصحيحة وهي الأساس الصلب والمنطلق لكل تصرفات المسلم.
 - ٢- المعلم التعبدی: يوضح أهمية العبادات والشعائر في تزكية النفس، وبناء الصلة المستمرة مع الخالق وتحويل العبادة إلى سلوك يومي.
 - ٣- المعلم الأخلاقي والسلوكي: يبين الكاتب أهمية الأخلاق الإسلامية كترجمة عملية للإيمان.
 - ٤- المعلم الفكري والعقلي: يدعو إلى تنمية العقل المسلم، وحمايته من التبعية الفكرية، أو الخرافات، وحثه على العلم، والتدبر والتفكير.
 - ٥- المعلم الحركي والاجتماعي: يؤكد أن الشخصية الإسلامية ليست انعزالية، بل هي شخصية إيجابية تتفاعل مع المجتمع تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، وتساهم في بناء الأمة، ونفع الناس.
- ما يميز هذا البحث:**

يميز هذا البحث بأنها ركزت على أول ما نزل من الوحي راسمة الملامح الأساسية للشخصية المسلمة، وكيف يمكن أن نجعل من هذه المنهجية أساساً يحدد لنا ما حقه التقدير وما حقه التأخير.

ثانياً: كتاب معالم الشخصية المسلمة المعاصرة: الدكتور عصام العبيدان والدكتور عبدالرحمن هوساوي

الكتاب يقدم رؤية متوازنة وسطية لما ينبغي أن تكون عليه الشخصية المسلمة التي تواجه صنوفاً شتى من التحديات المعاصرة ويركز الكاتبان على الجوانب الآتية:

- ١- المعلم العقدي والفكري.
- ٢- المعلم الأخلاقي والقيمي.
- ٣- المعلم النفسي والوجداني.
- ٤- المعلم الاجتماعي والعملي.

ما يميز هذا البحث

تحدث هذا البحث عن معالم الشخصية المسلمة كسابقتها بطريقة عامة وشاملة تتقصى الأدلة، وتتبع الآثار بشكل عام، ثم وضعت معالجات في ضوء ذلك، وتميز هذا البحث ببيان المنهجية الربانية في انتزاع العقل، والروح الإنسانية الغارقة في وحل الجاهلية الأولى، وكيف تكونت أطوار التخلق العقلي، والروحي، والسلوكي حتى ظهر للدنيا جيل إنساني ورباني ﴿حَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] استطاع أن يغير الدنيا فبارك الله أحسن الخالقين، وكلما تكررت الجاهليات كانت الحاجة ملحة لتقصي الأوليات الربانية في مواجهتها. وهناك دراسات أخرى في هذا المجال نكتفي بما ذكرناه.

المبحث الأول: الروايات الواردة في بيان أول ما نزل من القرآن الكريم،

وأقوال العلماء في ذلك، والجمع بينها

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: سبب نزول الآيات (العلق: ١-٥)

المطلب الثاني: الروايات الواردة في أنّ أول ما نزل سورة المدثر

المطلب الثالث: القول بأن أول ما نزل سورة المزمل

المطلب الرابع: الجمع بين الأقوال وترجيح المختار

تمهيد المبحث:

تنوّعت الروايات الواردة في بيان أول ما نزل من القرآن الكريم، وتعدّدت أقوال العلماء في تحديد ذلك، فذهب جمهورهم إلى أنّ أول ما نزل هو صدر سورة العلق، بينما نقلت أقوال أخرى تُفيد بأنّ أول ما نزل هو سورة المدثر، أو الفاتحة، أو المزمل، وقد نشأ هذا الاختلاف نتيجة لاختلاف زوايا النظر؛ فمنهم من نظر إلى ابتداء الوحي مطلقاً، ومنهم من نظر إلى أول ما نزل بعد فترة الوحي، أو أول سورة كاملة، أو أول ما تضمن تكليفاً عملياً. ومن هنا تأتى أهمية هذا المبحث، الذي يهدف إلى جمع الروايات الواردة في هذا الباب من مصادرها الأصلية، وبيان الفروق بينها، واستعراض أقوال المفسرين والمتقدمين، ثم الجمع بين هذه الأقوال جمعاً علمياً يرفع التعارض ويُبرز التدرّج التربوي للوحي الأول.

المطلب الأول: روايات ابتداء الوحي بنزول صدر سورة العلق (١-٥)

أولاً: حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها

أخرج الإمام البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها قالت: "أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّادِقَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْهُ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بَغَارٍ حَرَاءٍ... فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ... فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾" (١) ورواية مسلم:

"أن عائشة، زوج النبي صلى الله عليه وسلم أخبرته أنها قالت: كان أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي أولات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، ٦٧/١.

إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى فجنه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني، فغطني حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قال: قلت: «ما أنا بقارئ»، قال: فأخذني، فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: «ما أنا بقارئ»، فأخذني، فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني، فقال: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ④ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ⑤﴾ [العلق: ٢]، فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة، فقال: «زملوني زملوني»، فزملوه حتى ذهب عنه الروع^(٢).

ثانياً: الفرق بين رواية البخاري ورواية مسلم

مع اتفاق الروایتين على أصل القصة، فإننا نجد اختلافاً يسيراً في بعض الألفاظ لا يؤثر على المعنى العام للقصة.

ثالثاً: دلالة الرواية

تعد هذه الرواية أصح ما ورد في هذا الباب، وقد أجمع جمهور العلماء على أنها تدل دلالة صريحة على أن أول ما نزل من القرآن مطلقاً هو صدر سورة العلق (١-٥)، قال الإمام الطبري: "إن أول ما نزل من القرآن قول الله جل ثناؤه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾"^(٣)، وقال الإمام النووي: "الصحيح الذي عليه المحققون أن أول ما نزل: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ﴾"^(٤).

المطلب الثاني: الروايات الواردة في أن أول ما نزل سورة المدثر

أخرج الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: "سألت جابر بن عبد الله: أي القرآن أنزل أول؟ قال: يا أيها المدثر"^(٥)، وقد استدلل بعض العلماء بهذه الرواية على أن سورة المدثر هي أول ما نزل، غير أن جمهور المحققين حملوا هذا القول على أولية مخصوصة، لا على ابتداء الوحي مطلقاً. قد جمع ابن حجر العسقلاني بين الروایتين بأن: "الجمع بين حديث عائشة وحديث جابر أن أول ما نزل مطلقاً: ﴿أَقْرَأْ﴾، وأول ما نزل بعد فترة الوحي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾"^(٦).

المطلب الثالث: القول بأن أول ما نزل سورة المزمل

جزم جابر بن زيد بأن أول ما نزل اقرأ ثم ن ثم يا أيها المزمل ثم يا أيها المدثر ثم الفاتحة^(٧)، قال البقاعي: وهذه السورة من أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم^(٨)، عن ابن عباس قال: "كانت إذا أنزلت فاتحة الكتاب بمكة كُتِبَتْ بِمَكَّةَ ثُمَّ يَزِيدُ

(٢) صحيح مسلم، باب بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ١/١٣٩.

(٣) تفسير الطبري، ٥٣١/٢٤.

(٤) شرح النووي على مسلم، النووي، ١٩٧/٢.

(٥) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، ٨/٧١٤.

(٦) فتح الباري، ابن حجر، ١/٢٧.

(٧) روح المعاني، الألوسي، ٣٠/١٧٨.

(٨) نظم الدرر، البقاعي، ٢١/٣٣.

اللَّهُ فِيهَا مَا شَاءَ وَكَانَ أَوَّلَ مَا أُنْزِلَ مِنَ الْقُرْآنِ: ﴿أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ﴾ ثُمَّ ن ثُمَّ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ ثُمَّ يَا أَيُّهَا الْمُذْذِرُ^(٩)، وقد وجّه العلماء هذا القول بأن المقصود أول ما نزل من حيث التكليف العملي بالقيام، لا من حيث ابتداء الوحي بالقراءة.

المطلب الرابع: الجمع بين الأقوال وترجيح المختار

الصحيح الذي عليه الجمهور أن أول ما نزل: اقرأ باسم ربك، وهو الذي دلت عليه الروايات الصحيحة وما روي في غيره محمول على أولية مخصوصة، ويفهم من مجموع أقوال المفسرين أنّ الخلاف في تحديد أول ما نزل هو خلاف تنوّع، لا تعارض والخلاف في الأولوية المطلقة محصور بين سورة العلق والمدثر وقد بيناه سابقاً وباقي السور لها أولوية في جانب مخصوص.

ومن خلال استقراء الروايات الصحيحة، وأقوال المفسرين، وغيرهم، يمكن الجمع بين الأقوال على النحو الآتي:

- سورة العلق (١-٥): أول ما نزل من القرآن مطلقاً.
 - سورة المدثر: أول ما نزل بعد فترة الوحي، وأول ما تضمن الأمر بالإنذار.
 - سورة المزمل: من أوائل ما نزل في باب التهيئة الروحية والتكليف العملي.
 - سورة الفاتحة: أول سورة كاملة نزلت، وجامعة لمعاني العبودية.
- وبذلك يتبيّن أن هذا التعدّد في الأقوال يعكس تدرّجاً تربوياً مقصوداً في بناء الشخصية المسلمة، لا اختلافاً حقيقياً في الوقائع.

خلاصة المبحث:

خلص هذا المبحث إلى أنّ الوحي الأول جاء وفق منهج تربوي متدرّج، ابتداءً بالعلم والقراءة، ثم انتقل إلى الدعوة والإنذار، ثم إلى التزكية والإعداد الروحي، ثم إلى ترسيخ معاني العبودية الجامعة، ويُعدّ هذا التدرّج الأساس الذي بُني عليه فهم المعالم التربوية للشخصية المسلمة في المرحلة المكّية الأولى، وهو ما سيمثّل منطلقاً لدراسة هذه المعالم في السور المدروسة في المباحث اللاحقة.

المبحث الثاني: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في أول ما نزل من سورة العلق (الآيات ١-٥)

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: سبب نزول الآيات (العلق: ١-٥)

المطلب الثاني: التحليل اللغوي والبياني للآيات

المطلب الثالث: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في الآيات

المطلب الرابع: الدلالات التربوية المستفادة

(٩) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي، ٤٢/١.

تمهيد المبحث:

تمثل الآيات الخمس الأولى من سورة العلق نقطة الانطلاق الفعلية للوحي القرآني، وبداية المشروع التربوي الإسلامي في بناء الإنسان المسلم، وقد جاءت هذه الآيات في سياق مكّي خالص، موجّهة إلى فردٍ واحدٍ هو رسول الله ﷺ، لكنها في حقيقتها ترسم ملامح المنهج التربوي العام الذي تُبنى عليه شخصية المسلم في كل زمان ومكان.

وتكمن خصوصية هذه الآيات في أنّها لم تبدأ بتشريع تفصيلي، ولا بأمر اجتماعي، وإنما ابتدأت ببناء الإنسان من داخله: علماً، وإيماناً، ووعياً بمصدر المعرفة، وإدراكاً لحقيقة الخلق والغاية من الوجود، ومن هنا فإن الوقوف عند معانيها، واستقراء دلالاتها التربوية، يُعدّ مدخلاً أصيلاً لفهم معالم الشخصية المسلمة في مرحلتها التأسيسية الأولى.

المطلب الأول: سبب نزول الآيات (العلق: ١-٥)

اتفقت كتب التفسير وأسباب النزول على أنّ هذه الآيات نزلت على رسول الله ﷺ في غار حراء، في بداية البعثة، قال الإمام الطبري: "﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ هو أول شيء نزل من القرآن" (١٠)، وقال الواحدي: "﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿١﴾ أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٢﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٣﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٤﴾" قالوا: هذا صدرها الذي أنزل على رسول الله ﷺ يوم حراء، ثم أنزل آخرها بعد ذلك بما شاء الله (١١).

ويؤكد هذا السياق أن الوحي الأول جاء في لحظة خلوة وتأمل، وهو ما يعكس البعد التربوي في التهيئة النفسية والروحية لتلقي الرسالة، وقد أوردنا في المبحث السابق حديث عائشة، وما ورد فيه من قصة غار حراء بما يغني عن إعادته هنا.

المطلب الثاني: التحليل البياني للآيات

قال الله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ ١ ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ ٢ ﴿أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ ٣ ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ٤ ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ ٥ [العلق: ١-٥].

١- البدء باسم الله: الله هو خالق الوجود والمنعم على كل موجود فكان البدء باسمه في كل أمر ومقصد هو البركة التي ليس لها منتهى، يقول سيد قطب: "والبدء باسم الله هو الأدب الذي أوحى الله لنبيه ﷺ في أول ما نزل من القرآن باتفاق، وهو قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ...﴾، وهو الذي يتفق مع قاعدة التصور الإسلامي الكبرى من أن الله ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ...﴾، فهو - سبحانه - الموجود الحق الذي يستمد منه كل موجود وجوده، ويبدأ منه كل مبدوء بداء، فباسمه إذن يكون كل ابتداء، وباسمه إذن تكون كل حركة وكل اتجاه" (١٢).

(١٠) تفسير ابن كثير، ٤٣٦/٨.

(١١) أسباب النزول، الواحدي، ١٠/١.

(١٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣٩٩/٦.

٢- **الأمر بالقراءة:** افتتحت الآيات بفعل الأمر ﴿اقْرَأْ﴾، وهو توجيه صريح إلى طلب العلم والمعرفة، وقد نبّه المفسرون إلى أن القراءة هنا أعمّ من القراءة اللفظية، فهي تشمل التعلّم، والتدبّر، والفهم، وتشمل قراءة الذات، وقراءة الأحداث، وقراءة الكون، وفق منهجية واحدة وهي منهجية القراءة باسم ربك. قال الزمخشري: "المراد بالقراءة: التعلّم والتلقّي، لا مجرد التلفظ بالحروف" (١٣)، وفي الأمر بالقراءة إشارة إلى أن أمة محمد ستكون أمة علم ومعرفة، قال ابن عاشور: "وفيها إيماء إلى أَنَّ أُمَّتَهُ سَتَصِيرُ إِلَى مَعْرِفَةِ الْقِرَاءَةِ وَالْكِتَابَةِ وَالْعِلْمِ" (١٤).

٣- **تكرم الله للإنسان بنسبته إليه وتفضله عليه بالوحي:** وهذه المرحلة الفاصلة في حياة البشرية هي أعظم نعمة يجب أن يتوقف الإنسان عندها، يقول سيد قطب: "وهذه اللحظة التي تم فيها هذا الحادث تعد - بغير مبالغة - هي أعظم لحظة مرت بمجده الأرض في تاريخها الطويل. ما حقيقة هذا الحادث الذي تم في هذه اللحظة؟ حقيقته أن الله جل جلاله، العظيم الجبار القهار المتكبر، مالك الملك كله، قد تكرم - في عليائه - فالتفت إلى هذه الخليقة المسماة بالإنسان، القابعة في ركن من أركان الكون لا تكاد ترى اسمه الأرض، وتكرم هذه الخليقة باختيار واحد منها ليكون ملتقى نوره الإلهي، ومستودع حكمته، ومهبط كلماته، وممثل قدره الذي يريد - سبحانه - بمجده الخليقة" (١٥).

٤- **ربط المعرفة بالله:** قوله تعالى: ﴿يَاسْمِ رَبِّكَ﴾ يدلّ على أن المعرفة في التصور الإسلامي ليست مستقلة عن الإيمان، بل منضبطة بالمرجعية الإلهية وهذه المرجعية تشمل مرجعية العبادة، ومرجعية الاستعانة، قال ابن عاشور: "في إضافة القراءة إلى اسم الرب إشعار بأن العلم الصحيح ما كان موصولاً بالله تعالى" (١٦).

٥- **تذكير الإنسان بأصله:** قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ يربّي في النفس معنى التواضع، وينزع عنها الغرور العلمي.

"فالإنسان في كيان، هو واه ضعيف؛ لأنه خلق من ضعف، كما يقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ مِنْ بَعْدِ ضَعِيفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَكُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ [الروم: ٥٤]، وكما يقول جلّ شأنه: ﴿وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]، ولكنه حين تلبسه القوة، ينسى ضعفه، ويستولى عليه الغرور، ويستبدّ به العجب والخيلاء" (١٧).

٦- **شرف العلم ومنزلته:** قال الزمخشري: "الأكرم الذي علّم بالقلم علّم الإنسان ما لم يُعلّم فدلّ على كمال كرمه بأنه علم عباده ما لم يعلموا، ونقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، ونبه على فضل علم الكتابة لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إلا هو، وما دونت العلوم ولا قيدت الحكم ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولا هي لما استقامت أمور الدين والدنيا، ولو لم يكن على دقيق

(١٣) الكشف، الزمخشري، ٧٣٥/٤.

(١٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤٣٤/٣٠.

(١٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣٩٣٦-٣٩٣٧/٦.

(١٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٤٥٤/٣٠.

(١٧) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٩٦٨/٦.

حكمة الله ولطيف تدبيره دليل إلا أمر القلم والخط، لكفى به^(١٨)، وقال البقاعي: "وذلك لا يكون بدون إفاضة العمل بما يرضي، فيكون سبباً للكرامة الدائمة، وبالتعليم الذي من شأنه أن يهدي إلى الرضوان"^(١٩).

المطلب الثالث: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في الآيات

من خلال تحليل الآيات وأقوال المفسرين المذكورين سابقاً، يمكن استخلاص المعالم التربوية الآتية:

١- **معلم بناء العقل وتوضيح الفكر قبل غيره:** هذا أمر في غاية الأهمية إذ أن الآيات الأولى من الوحي لم تذكر مسائل الاعتقاد أو العبادات بل ذكرت القراءة والوعي فالشخصية الإسلامية واعية مستنيرة والوحي ينمي العقل لا يعطله والعقل يرشد إلى الوحي لا يبطئه.

٢- **معلم مركزية العلم في بناء الشخصية:** الشخصية المسلمة شخصية قارئة، واعية، قائمة على المعرفة لا على التقليد الأعمى فلا مجال بعد نزول الوحي لقبول الأوهام والعيش في عالم الخرافات بل أصبح القول الفصل للبرهان والدليل.

٣- **معلم الارتباط بأدوات العلم:** فالشخصية الإسلامية شخصية كاتبة توثيقية، فالإشارة إلى القلم إشارة إلى المكانة التي سيحتلها، وإشارة إلى أهمية حفظ العلم، وتوثيقه، ونقله، ونشره، فالقلم أداة التمدن، وبناء الحضارة، والمسلم قائد حضاري لا يكتفي بالتلقي الشفهي بل يدون العلوم ويفيد الإنسانية.

٤- **معلم الارتباط بالله في طلب العلم:** العلم في الإسلام عبادة، لا ينفصل عن الإيمان ولا يُثمر دون نية صالحة، والمسلم لا يسعى من خلال طلبه للعلم إلى تحقيق مكاسب حياتية فحسب، بل يربط كل علم يتعلمه بالله سبحانه فيزيده إيماناً، وخشياً، ويجعله سبباً لإسعاد البشرية لا لشقاها، ولهدايتها لا لإغواها، ولربطها بآخرتها لا لإلهاؤها عنها.

٥- **معلم التواصل العلمي:** تذكير الإنسان بأصله ﴿عَلَّقِ﴾ يرسخ خلق التواصل، ويمنع الغرور، فالرب الأكرم هو الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وعلم بالقلم، فالإنسان بالله شيء وبدون الله لا يساوي شيئاً، ثم تؤكد هذه الآيات أصل العلم ومصدره، فالله هو الذي علّم ومنه العلم، قال تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] والله هو الذي وهب للإنسان أدوات التعلم التي بدونها لن يصل إلى شيء من المعلومات، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ﴾ [النحل: ٧٨].

٦- **معلم التربية الربانية:** فالمسلم مرتبط بالله رب العالمين منذ ولادته الخلقية، وولادته المعرفية، وولادته الحضارية، فالمسلم من الله بدأ واليه يعود، يقول سيد قطب: "بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة، كل أمر، كل حركة، كل خطوة، كل عمل باسم الله، وعلى اسم الله، باسم الله تبدأ، وباسم الله تسير، وإلى الله تتجه، وإلى الله تصير، والله هو الذي خلق، وهو الذي علم، فمنه البدء والنشأة، ومنه التعليم والمعرفة، والإنسان

(١٨) الكشف، للزمخشري ٧٧٤/٤.

(١٩) نظم الدرر، البقاعي، ١٥٤/٢٢.

يتعلم ما يتعلم، ويعلم ما يعلم، فمصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علم ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٢٠).

المطلب الرابع: الدلالات التربوية المستفادة

١- ضرورة بناء المناهج التربوية على أساس العلم والإيمان معاً: إن الخلاف النكد بين العلم، والإيمان الذي أثاره من قل علمه، أو ضعف عقله، أوجد لنا شخصيات غير وازنة في الحياة، فما بين شخصية لا تتعدى محراب صلاتها، وأخرى لا تتعدى محراب حياتها، ضاع الإنجاز الحضاري، إن الوحي يبين بلا مواربة أهمية أن تربط كل العلوم الحياتية بالإيمان، وتربط كل معاني الإيمان بالعلم، وهذا ما ينبغي التركيز عليه، فتكون كليات العلوم التطبيقية، والإدارية، والطبية منارة لترسيخ الإيمان، كما تكون كليات العلوم الشرعية دليلاً هادياً إلى العلم التطبيقي.

٢- تقديم التربية العقلية في المراحل الأولى من التكوين الإسلامي: لقد أصبحت نظرية الحجر، والإغلاق في مجال التربية جزءاً من الحال في عالم القرية الواحدة، والفضاء المفتوح، وإذا دخلت الشخصية المسلمة في ظلمات الشبهات الخالكة بدون فكر رشيد، ووعي سديد، فوقوعها فريسة سهلة في أيدي شياطين الإنس والجن أمر واقع ولات حين مناص، وعليه فالواجب التربوي يحتم علينا إيجاد برامج التحصين الفكري، والتدريب العقلي قبل مناهج التأهيل العبادي، والأخلاقي؛ حتى نواجه بوغي ونتحرك في الحياة برشد.

٣- ترسيخ قيمة التعلم المستمر في حياة المسلم: مما أصبح معلوماً بالضرورة السرعة في تجدد العلم، وتطور ميادين المعرفة، وهنا كانت اللفتة العجيبة في معالم أول ما نزل من الوحي أن الانسان يعلم أشياء، ولا يعلم أشياء، فهو دائم الطلب من الله الأكرم أن يعلمه ما لم يعلم، فإن من لم يتجدد يتبدد، ومن لم يتقدم يتقادم، ورحلة العلم قرينة الأجل، فتبدأ من المحبرة وتستمر إلى المقبرة ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً﴾ [طه: ١١٤].

٤- إعداد الشخصية المسلمة لتكون فاعلة معرفياً في مجتمعتها: إن من أهم ما يميز القراءة الربانية أنها قراءة مثمرة ونافعة على المستوى الفردي وعلى المستوى الجماعي، فما أن تضيء أنوار المعرفة جنبات العقل والروح حتى تحتز وترتو وتنبت من المعارف كل زوج بهيج ثم تنطلق في مجتمعتها معلمةً وهاديةً لتوجد البلد الطيب الذي يخرج نباته بإذن ربه، وهذا ما ينبغي أن يعيه أرباب التربية اليوم.

خلاصة المبحث:

يتبين من خلال هذا المبحث أن سورة العلق وضعت الأساس الأول لمعالم الشخصية المسلمة، فبدأت ببناء العقل، وربط المعرفة بالله، وتركبة النفس بالتواضع، وإرساء قيمة التعليم، وهي معالم ستتأكد وتتكامل في السور المكينة اللاحقة.

المبحث الثالث: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في سورة المدثر

المطلب الأول: سبب نزول سورة المدثر

المطلب الثاني: التحليل البياني لآيات السورة

المطلب الثالث: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في سورة المدثر

المطلب الرابع: الدلالات التربوية المستفادة

تهييد المبحث:

تمثل سورة المدثر مرحلة متقدمة في مسار الوحي المكّي، إذ جاءت بعد نزول صدر سورة العلق، وفي سياق الانتقال من مرحلة التلقّي والإعداد إلى مرحلة التكليف والقيام بالرسالة، وقد تميّزت هذه السورة بطابعها العملي الواضح، حيث وجّه الخطاب فيها إلى رسول الله ﷺ بصفته المبلّغ عن الله، والداعي إلى الحق، والمكلّف بإنذار الناس.

ومن هنا تبرز أهمية سورة المدثر في رسم معالم الشخصية المسلمة من حيث تحمّل المسؤولية، والالتزام بالدعوة، والانضباط السلوكي، والتجرّد لله تعالى، وهي معالم تربوية أساسية في مرحلة البناء الأولى.

المطلب الأول: سبب نزول سورة المدثر

اتفقت كتب التفسير والسيرة على أن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي، حين رجع النبي ﷺ إلى بيته بعد لقائه الأول بجبريل - عليه السلام - فدثّر نفسه، فجاءه النداء الإلهي.

قال الإمام الطبري: عن الزهري، قال: فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة، فحزن حزناً، فجعل يعدو إلى شواحق رءوس الجبال ليتردّى منها، فكلما أوفى بذروة جبل تبدّى له جبريل عليه السلام فيقول: إنك نبيّ الله، فيسكن جأشه، وتسكن نفسه، فكان النبيّ صلى الله عليه وسلم يحدث عن ذلك، قال: "بَيْنَمَا أَنَا أَمْشِي يَوْمًا إِذْ رَأَيْتُ الْمَلَكَ الَّذِي كَانَ يَأْتِينِي بِحِرَاءٍ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَجِئْتُ مِنْهُ رُغْبًا، فَرَجَعْتُ إِلَى خَدِيجَةَ فَقُلْتُ: "زَعَلُونِي"، فزملناه: أي فدثرناه، فأنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَشِيبَاكَ فَطَهِّرْ ۝٤﴾ قال الزهري: فكان أول شيء أنزل عليه: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ...﴾ حتى بلغ ﴿مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝١١﴾، قال ابن كثير: "وَوَجْهُ الْجُمُعِ أَنَّ أَوَّلَ شَيْءٍ نَزَلَ بَعْدَ فِتْرَةِ الْوَحْيِ هَذِهِ السُّورَةُ" (٢١)، ويُفهم من هذا السياق أن الخطاب في هذه السورة جاء إيداناً ببدء مرحلة جديدة في مسار الدعوة.

المطلب الثاني: التحليل البياني لآيات السورة

١- النداء بوصف الحال: جاء النداء بـ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾، وهو وصفٌ لحال النبي ﷺ، وفيه إشارة إلى الانتقال من حالة السكون إلى الحركة وبين ذلك ما نقله الشوكاني في فتح القدير: "قَالَ عِكْرِمَةُ: "الْمَعْنَى يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ بِالنَّبُوءَةِ وَأَثْقَالِهَا، قَالَ ابْنُ الْعَرَبِيِّ: وَهَذَا جَزَاءٌ بَعِيدٌ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيًّا إِذْ ذَاكَ" (٢٢)، وقال ابن عاشور: "فَالْوَصْفُ بِالْمُدَّثِّرِ

(٢١) جامع البيان الطبري ٨/٢٣.

(٢٢) تفسير ابن كثير، ٨/٢٦٢.

(٢٣) فتح القدير، الشوكاني، ٥/٣٨٨.

حَقِيقَةً، وَقِيلَ هُوَ مَجَازٌ عَلَى مَعْنَى: الْمُدَّيِّرُ بِالنُّبُوَّةِ، كَمَا يُقَالُ: ارْتَدَى بِالْمَجْدِ وَتَأَزَّرَ بِهِ عَلَى نَحْوِ مَا قِيلَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَأْتِيهَا الزَّيْلُ﴾، أَيْ يَا أَيُّهَا اللَّائِسُ خُلْعَةُ النُّبُوَّةِ وَدَنَارُهَا^(٢٤).

٢-الأمر بالقيام والإنذار: قوله تعالى: ﴿فَرَّانِذِرْ﴾ يدل على أن الدعوة تتطلب حركة وعملاً، وأن التبليغ مسؤولية لا تختمل التأجيل، كما قال ابن كثير: "﴿فَرَّانِذِرْ﴾ أَيْ: شَمَّرَ عَنِ سَاقِ الْعَزْمِ، وَأَنْذَرَ النَّاسَ، وَهَذَا حَصَلَ الْإِرْسَالُ، كَمَا حَصَلَ بِالْأَوَّلِ النُّبُوَّةُ"^(٢٥)، وقال البيضاوي: "فَأَنْذِرْ مطلق للتعميم أو مقدر بمفعول دل عليه قوله: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ أو قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾"^(٢٦)، وقال ابن عاشور: "وَالْفَيَّامُ الْمَأْمُورُ بِهِ لَيْسَ مُسْتَعْمَلًا فِي حَقِيقَتِهِ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَكُنْ حِينَ أُوحِيَ إِلَيْهِ هَذَا نَائِمًا وَلَا مُضْطَجِعًا وَلَا هُوَ مَأْمُورٌ بِأَنْ يَنْهَضَ عَلَى قَدَمَيْهِ، وَإِنَّمَا هُوَ مُسْتَعْمَلٌ فِي الْأَمْرِ بِالْمُبَادَرَةِ وَالْإِقْبَالِ وَالتَّهَمُّمِ بِالْإِنْذَارِ مَجَازًا أَوْ كِنَايَةً"^(٢٧).

٣-تكبير الله وتعظيمه: هذه مهمة المسلم الكبرى، وزاده الدائم، وسلاحه القاطع، قال سيد قطب رحمه الله: "ثم يوجه الله رسوله في خاصة نفسه بعد إذ كلفه نذارة غيره، يوجهه إلى تكبير ربه: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ ربك وحده، فهو وحده الكبير، الذي يستحق التكبير، وهو توجيه يقرر جانباً من التصور الإيماني لمعنى الألوهية، ومعنى التوحيد. إن كل أحد، وكل شيء، وكل قيمة، وكل حقيقة... صغير... والله وحده هو الكبير، وهو توجيه للرسول ﷺ ليواجه نذارة البشرية، ومتاعبها وأهوالها وأثقالها، بهذا التصور، وبهذا الشعور، فيستصغر كل كيد، وكل قوة، وكل عقبة، وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة، هو الكبير، ومشاق الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور وهذا الشعور"^(٢٨)، وتكبير الله يكون بالقول والفعل والاعتقاد، ولا شك أن من كبر الله صغر عنده من سواه ومن قدم الله على غيره قدمه الله على غيره.

٤-القيام الحضاري الطاهر: إن القيام الحضاري الذي يريده الله من نبيه وأمته من بعده هو القيام المبني على طهارة النفس والقلب والعقل واليد والبدن، طهارة معنوية ومادية فإذا تمت لهم طهارة الذات تسنى لهم بعد ذلك تطهير العالم من حولهم، وقال ابن عاشور: "في هذه السورة انتقال من تربية الفرد إلى تربية الجماعة"^(٢٩)، وقال ابن عطية: "واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿وَرَبَّكَ فَطَهِّرْ﴾"، فقال ابن سيرين وابن زيد بن أسلم والشافعي وجماعة: هو أمر بتطهير الثياب حقيقة، وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب"، وقال الجمهور: "هذه الألفاظ استعارة في تنقية الأفعال والنفس والعرض"^(٣٠).

(٢٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/٢٩٤.

(٢٥) تفسير ابن كثير، ج ٨/ ٢٦٢.

(٢٦) تفسير البيضاوي، ٥/٢٥٩.

(٢٧) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/٢٩٤.

(٢٨) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/٣٧٥٤.

(٢٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/١٥٣.

(٣٠) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/٣٩٢.

٥- إنكار الذات وعدم المن: إن البذل لله ومن أجل الله من أجل نعم الله على العبد، فمن أحبه الله استعمله ومن كرهه استبدله، فالعمل الدعوي عطاء يستحق الشكر لا المن، ونحن بحاجة إلى الدعوة لدين الله أما دين الله فاهو ظاهر بنا أو بغيرنا، ويقول سيد قطب: "﴿وَلَا تَتَنَبَّهْ عَلَىٰ نَفْسِكَ﴾"، وهو سيقدم الكثير، وسيبذل الكثير، وسيلقى الكثير من الجهد والتضحية والعناء، ولكن ربه يريد منه ألا يظل يستعظم ما يقدمه ويستكثره ويمتن به، وهذه الدعوة لا تستقيم في نفس تحس بما تبذل فيها، فالبذل فيها من الضخامة بحيث لا تحتمله النفس إلا حين تنساه^(٣١).

٦- الصبر الجميل: إن الصبر هو وصية الله لكل الأنبياء والمرسلين ومن سار على درجهم، فطريق الحق لا مكان فيه للعجز والتردد، فهذه المعركة الشاقة التي يواجه فيها الإنسان نفسه وديناه وشياطين الإنس والجن أنى له الظفر ما لم يتدثر بالصبر ويتزمل بالثبات، والصبر يعدى بعلى وباللام ويختلف المعنى تبعاً لذلك "وَيُعَدَّى فِعْلُ الصَّبْرِ إِلَى اسْمِ الَّذِي يَتَحَمَّلُهُ الصَّابِرُ بِحَرْفِ (عَلَى)، يُقَالُ: صَبَرَ عَلَى الْأَذَى، وَيَتَضَمَّنُ مَعْنَى الْخُضُوعِ لِلشَّيْءِ الشَّاقِّ فَيُعَدَّى إِلَى اسْمِ مَا يَتَحَمَّلُهُ الصَّابِرُ بِاللَّامِ، وَمُنَاسَبَةُ الْمَقَامِ تُرَجِّحُ إِحْدَى التَّعْدِيَتَيْنِ، فَلَا يُقَالُ: اصْبِرْ عَلَى اللَّهِ، وَيُقَالُ: اصْبِرْ عَلَى حُكْمِ اللَّهِ، أَوْ لِحُكْمِ اللَّهِ، فَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ اللَّامُ فِي قَوْلِهِ لِرَبِّكَ لِتَعْدِيَةِ فِعْلِ الصَّبْرِ عَلَى تَقْدِيرِ مُضَافٍ، أَيْ اصْبِرْ لِأَمْرِهِ وَتَكَالِيفِ وَخِيَةِ"^(٣٢)، والدلالة التي تنبه لها هنا أن الأقدار تتطلب منا دفعا وردا بأقدار مثلها، فندفع قدر الشر بقدر الخير ولا نخضع نستكين، وأما الخضوع والاستسلام فهو أمر مطلوب أمام أحكام الله وتكاليفه التي لا تحتمل إلا ذلك؛ ليكون الفرد مسلما.

٧- نقص المعرفة ليس السبب الوحيد في عدم الامتثال: يقول سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾^(٣٣) كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنَفِرَةٌ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾^(٣٤) بَلْ يَرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمُ أَنْ يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنشَرَةً ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [المدر: ٤٩-٥٣]، قال ابن عاشور: "كَلَّا إِنْطَالٌ لِّظَاهِرِ كَلَامِهِمْ وَمُرَادِهِمْ مِنْهُ وَرَدُّ عَنْ ذَلِكَ، أَيْ لَا يَكُونُ لَهُمْ ذَلِكَ، ثُمَّ أَضْرَبَ عَلَى كَلَامِهِمْ بِإِنْطَالٍ آخَرَ بِحَرْفِ الْإِضْرَابِ فَقَالَ: بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ أَيْ لَيْسَ مَا قَالُوهُ إِلَّا تَنْصَلًا فَلَوْ أَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابٌ مَا آمَنُوا وَهُمْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ، أَيْ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا فَكُنِّي عَنْ عَدَمِ الْإِيمَانِ بِالْآخِرَةِ بِعَدَمِ الْخَوْفِ مِنْهَا، لِأَنَّهُمْ لَوْ آمَنُوا بِهَا لَخَافُوهَا إِذِ الشَّأْنُ أَنْ يَخَافَ عَذَابَهَا إِذْ كَانَتْ إِحَالَتُهُمْ الْحَيَاةَ الْآخِرَةَ أَصْلًا لِتَكْذِيبِهِمْ بِالْقُرْآنِ"^(٣٥).

المطلب الثالث: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في سورة المدثر

يمكن استخلاص جملة من المعالم التربوية، من أبرزها

١- معلم تحمّل المسؤولية: الشخصية المسلمة شخصية فاعلة، لا تترك إلى السكون، بل تتحمّل مسؤولية الدعوة والإصلاح، وتبدأ مسؤوليتها من المسؤولية الذاتية لتصل إلى المسؤولية الأسرية، قال ﷺ: ((كلكم راع وكلكم

(٣١) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/٣٧٥٥.

(٣٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/٢٩٩.

(٣٣) التحرير والتنوير، لابن عاشور، ٢٩/٣٣١.

مسؤول عن رعيته^(٣٤)، وترتقي حتى تحمل هم ومسؤولية أمتها في صورة تمثل الجسدية بأكمل معانيها ((من لم يهتم بأمر المسلمين فليس منهم))^(٣٥).

٢- معلم تعظيم الله في كل قول وعمل: قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ يرسخ مبدأ إخلاص العمل لله وتعظيمه فوق كل اعتبار، فلا يمكن للشخصية المسلمة أن تواجه الأخطار وتقف أمام الجبارين بكل علو واقتدار، إلا إذا علا الله في قلبها وعظم قدره، وبقدر هذا العلو، يكون استصغاره لمن دونه، ولعل من يتتبع آيات القرآن وهو يتحدث عن المرسلين ومهمتهم ليجد أن من أعظم المقاصد هو تعظيم الله في نفوس خلقه ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

٣- معلم الطهارة الظاهرة والباطنة: قوله تعالى: ﴿وَشِيَابَكَ فُطِّرَ﴾ يشمل الطهارة الحسية والمعنوية، وهي سمة لازمة للداعية، فكيف يمكنه أن يهيب الناس أمراً لا يملكه، ففانك الشيء لا يعطيه، والله عز وجل، يريد من الشخصية المسلمة أن تبدأ معالم الطهر بصورة ذاتية فيقتدي الناس ويتأثرون بأفعالها قبل أقوالها.

٤- معلم التجرد من الأغراض: النهي عن المنّ يدلّ على أن العمل الدعوي لا يُطلب به جزاء دنيوي، فإذا أراد المسلم، أن يجد جزاء على دعوته، فلن يكفيه كل ما في الأرض، وأنى للناس أن يقدروا على دفع ذلك قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَّعْرَمٍ مُثْقَلُونَ﴾ [الطور: ٤٠].

٥- معلم الصبر في سبيل الله: الصبر خلقٌ مركزي في بناء الشخصية المسلمة، خاصة في مواجهة الأذى، ولعل المتأمل في صفات الأنبياء والمرسلين من لدن آدم - عليه السلام - لا يخطئه النظر في أن الصبر هو أعظم المراكب التي وصلوا بها إلى أعلى المراتب، وأن أصحاب التأثير ما لهم بد من الاتكاء على منسأة الصبر ليصلوا بها إلى مراقي التقدير.

المطلب الرابع: الدلالات التربوية المستفادة

١- ضرورة إعداد المسلم لتحمل المسؤولية المجتمعية والدعوية: لعل هذه الإشارة الدقيقة إلى القيام، والتحرك هو العنوان الأبرز في ميادين التربية الإسلامية، فمن أول وهلة لا بد من النزول إلى ميدان العمل، والانجاز، والمشاركة الفاعلة في ميدان البذل، والعطاء، فالمسلم لا ينكفي على نفسه، بل يحمل مسؤولية مجتمعه أمراً، ونهياً، وهدايةً، وإرشاداً.

٢- ترسيخ مبدأ الإخلاص والتجرد في العمل: مبدأ الأثر الدائم، والعطاء الممدود من أهم ما يحرص عليه المسلم، لذا لا بد أن تكون حركته الإصلاحية التغييرية مرتبطة بالله الذي لا يحول، ولا يزول، وهو اللطيف الخبير، وحقيق على كل مرب أن يحرص على فقه النوايا، والمقاصد فينشئ جيلاً إن قال فعن الله، وإن تحرك فمن أجل الله، وإن توقف فبأمر الله، فهو الله، وبالله، ومن أجل الله، وما كان الله بغيري.

(٣٤) متفق عليه، صحيح البخاري، ٢٧٢/١ وصحيح مسلم، ١٤٥٩/٣.

(٣٥) أخرجه الطبراني في الصغير، ص ١٨٨، والأوسط (١٧١/٢) (٧٦٢٦/١) وعنه أبو نعيم في أخبار أصبهان ٢٥٢/٢ من طريق عبد الله بن أبي جعفر الرازي عن أبيه عن الربيع عن أبي العالية عن حذيفة بن اليمان مرفوعاً، وقال: "لا يروى عن حذيفة إلا بهذا الإسناد"، قال الالباني: "وهو ضعيف"، سلسلة الأحاديث الضعيفة والألباني، ٤٨٣/١.

٣-الجمع بين الطهارة السلوكية والروحية: قد تجد كثيراً من المدارس السلوكية التي تمجد الأخلاق، وتهذب السلوك، وفي المقابل تجد مدارس أخرى تعنى بالرياضات الروحية، والإشرافات النفسية، وتميزت المدرسة التربوية الإسلامية بأنها تؤلف في تكامل بديع بين طهارة القول، وطهارة الفعل بين جمال الظاهر، وجمال الباطن بين حسن الأدب مع الخلق، وحسن الأدب مع الخالق سبحانه.

٤-تدريب النفس على الصبر والثبات في مواجهة التحديات: تحدد ملامح التربية الإسلامية أسس التعامل مع الحياة، والوجود الإنساني في الأرض في إطار الابتلاء، والامتحان ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [تبارك: ٢]، وفي ضوء هذا المؤشر الواضح، فلا بد من إعداد الشخصية المسلمة بصورة صلبة قوية لديها القدرة الكافية على تجاوز كل أنواع الامتحانات الداخلية، والخارجية، من الصديق، ومن العدو، فتخرج منها أقوى عوداً، وأشد عموداً ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿[الفرقان: ٢٠] ولا راحة للمسلم إلا عندما يضع رحالة في الجنة.

خلاصة المبحث:

تُبرز سورة المدثر معالم الشخصية المسلمة في مرحلة التكليف والقيام بالرسالة، حيث انتقل الخطاب القرآني من بناء الفرد علمياً وإيمانياً إلى تهيئته لتحمل أعباء الدعوة، وهي مرحلة مكملتها لما سبقها من مراحل التأسيس.

المبحث الرابع: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في سورة المزمل

المطلب الأول: مكانة وسبب ووقت نزول سورة المزمل

المطلب الثاني: التحليل البياني للسورة

المطلب الثالث: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في سورة المزمل

المطلب الرابع: الدلالات التربوية المستفادة

تمهيد المبحث:

تمثل سورة المزمل مرحلة دقيقة من مراحل البناء التربوي في العهد المكي، حيث جاءت مكملتها لمسار التأسيس الذي بدأ بالعلم في سورة العلق، ثم تحمّل المسؤولية والدعوة في سورة المدثر، وقد ركّزت سورة المزمل على جانب الإعداد الروحي والتزكية النفسية، بوصفه شرطاً أساسياً للثبات على الدعوة وتحمل أعبائها. وتكشف آيات السورة عن عناية القرآن الكريم ببناء الداخل الإيمان للإنسان المسلم، من خلال قيام الليل، والاتصال بالله تعالى، والتدرّج في التكليف، وهو ما يجعلها من السور المؤسسة لمعالم الشخصية المسلمة في بعدها الروحي والسلوكي.

المطلب الأول: مكانة وسبب ووقت نزول سورة المزمل

تمثل سورة المزمل معلماً مهماً في بناء الشخصية المسلمة، وقد اتسمت بأنها حملت الأمر بقيام الليل في شطرها الأول، ونسخ ذلك الأمر في شطرها الثاني، وكلاهما يضع مدامك البناء للشخصية المنشودة، يقول سيد قطب: "والسورة بشطريها تعرض صفحة من تاريخ هذه الدعوة، تبدأ بالنداء العلوي الكريم بالتكليف العظيم، وتصور الإعداد له والتهيئة بقيام الليل، والصلاة، وترتيل القرآن، والذكر الخاشع المتبتل، والالتكال على الله وحده، والصبر على الأذى، والهجر الجميل للمكذّبين، والتخليّة بينهم وبين الجبار القهار صاحب الدعوة وصاحب المعركة،

وتنتهي بلمسة الرفق والرحمة والتخفيف والتيسير، والتوجيه للطاعات والقربات، والتلويح برحمة الله ومغفرته: ﴿إِنِّي أَنذَرْتُكُمْ عَذَابَ الرَّجِيمِ﴾ وهي تمثل بشطريها صفحة من صفحات ذلك الجهد الكريم النبيل الذي بذله ذلك الرهط المختار من البشرية - البشرية الضالة، ليردها إلى ربها، ويصبر على أذاها، ويجاهد في ضمايرها وهو متجرد من كل ما في الحياة من عرض يغري، ولذاذة تلهي، وراحة ينعم بها الخليون، ونوم يلتذ به الفارغون^(٣٦). وقد ورد في سبب نزولها عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ قال: ((جاورت بحراء، فلما قضيت جوارى هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني، فلم أر شيئاً، ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، ونظرت خلفي، فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي، فإذا الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض، فجلست (فزعت) منه رعياً، فرجعت فقلت: دثروني دثروني))، وفي رواية: ((فجلست أهلي، فقلت: زملوني زملوني))^(٣٧)، فأُنزل الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾.

وقال جمهور العلماء: وعلى إثرها نزلت يا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ.

وعلى هذا يكون سبب النزول هو ما عراه ﷺ من الرعب والفرع عند رؤية الملك، وتكون حادثة التزمل هي حادثة التدثر بعينها^(٣٨)، وقد يكون حدث بعده بفترة وجيزة، وهناك سبب آخر ذكره المفسرون، فقد ورد في حديث جابر بن عبد الله قال: "لَمَّا اجْتَمَعَتْ قُرَيْشٌ فِي دَارِ النَّدْوَةِ فَقَالُوا: سَمُّوا هَذَا الرَّجُلَ اسْمًا تَصُدُّرُ النَّاسُ عَنْهُ (أَيَّ صِفَتِهِ وَصِفًا تَتَّفِقُ عَلَيْهِ النَّاسُ) فَقَالُوا: كَاهِنٌ، وَقَالُوا: مَجْنُونٌ، وَقَالُوا: سَاحِرٌ، فَصَدَرَ الْمُشْرِكُونَ عَلَى وَصْفِهِ بِـ(سَاحِرٍ) فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ فَحَزَنَ وَتَزَمَّلَ فِي ثِيَابِهِ وَتَدَثَّرَ، فَأَتَاهُ جَبْرِيلُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ"^(٣٩)، وقد اتفق جمهور المفسرين على أنَّ سورة المزمل من أوائل ما نزل بمكة، وقد نزلت في مرحلة مبكرة من الدعوة، عقب نزول سورة المدثر أو معها تقريباً، وقال ابن كثير: "هذه السورة من أوائل ما نزل، وفيها الأمر بقيام الليل الذي كان فرضاً في أول الإسلام"^(٤٠).

ويؤكد هذا السياق أن سورة المزمل جاءت لتهيئ النبي ﷺ نفسياً وروحياً لتحمل أعباء الرسالة، وكان بين نزول أولها وآخرها سنة تقريباً.

عن ابن عباس رض الله عنه قال: "لما نزلت أول المزمل كانوا يقومون نحواً من قيامهم في شهر رمضان، حتى نزل آخرها، وكان بين أولها وآخرها سنة"^(٤١).

(٣٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٣٧٤٣/٦.

(٣٧) البخاري، ٣٠٦/٣، ومسلم، ٩٩/١.

(٣٨) تفسير المنير للزحيلي، ١٩١/٢٩.

(٣٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٥٦/٢٩.

(٤٠) تفسير ابن كثير، ٢٧٦/٨.

(٤١) سنن أبي داود، ٤٧٥/٢، والسنن الكبرى للبيهقي، ٧٠٤/٢، والمستدرک للحاكم، ٥٤٨/٢، الحديث رجاله رجال الصحيح إلا أحمد بن محمد المروزي أبا الحسن بن شيبويه وهو ثقة، مقلد الهمداني الصحيح المسند من أسباب النزول ٢٢٢/١.

المطلب الثاني: التحليل البياني للسورة

١- النداء بوصف المزمّل: فيه دلالة على العناية الإلهية بحال النبي ﷺ، مع توجيهه إلى الانتقال من الدثار إلى العبادة، وقال الزمخشري: "نودي بوصفه إشعاراً بلطف الخطاب قبل التكليف" (٤٢)، كما قال ابن عاشور: "افتتاح الكلام بالنداء إذا كان المخاطب واحداً ولم يكن بعيداً يدل على الإعتناء بما سيُلقي إلى المخاطب من كلام، والأصل في النداء أن يكون باسم المُنَادَى العَلَم إذا كان معروفاً عند المُتَكَلِّم فلا يُعَدّل من الاسم العَلَم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لعرض يقصده البُلغاء من تعظيم وتكريم" (٤٣).

٢- الأمر بقيام الليل: قيام الليل هو أعظم وسائل التزكية والاتصال بالله، قال ابن عطية: "واختلف الناس في هذا الأمر بقيام الليل كيف كان؟ فقال جمهور أهل العلم: هو أمر على جهة الندب مذ كان لم يفرض قط واختلف هؤلاء فقال بعضهم: كان فرضاً على النبي ﷺ خاصة، وبقي كذلك حتى توفي عليه السلام، وقيل: بل نسخ عنه ولم يمت إلا والقيام تطوع، وقال بعضهم: كان فرضاً على الجميع ودام الأمر على ما قال سعيد بن جبير عشر سنين، وقالت عائشة وابن عباس دام عائماً، وروي عنها أيضاً ثمانية أشهر ثم رحّمهم الله تعالى، فنزلت: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ﴾ فخفف عنهم، وقال قتادة بقي عامّاً أو عامين" (٤٤)، وقال ابن عاشور: "وقد كان النبي ﷺ يتحنّث في غار جراء فبُئِلَ بَعَثَهُ بِالْهَامِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَالَّذِي أَلْهَمَهُ ذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُوحَى إِلَيْهِ يَجِدُ أَنَّ يَأْمُرُهُ بِهِ بَعْدَ أَنْ أَوْحَى إِلَيْهِ فَلَا يَنْقُصُ فَتَرَةً مِنَ الزَّمَنِ غَيْرَ مُتَعَدِّ لِعِبَادَةٍ، وَلِهَذَا تُرْجَحُ أَنَّ قِيَامَ اللَّيْلِ فُرِضَ عَلَيْهِ قَبْلَ فُرُضِ الصَّلَاةِ الْخَمْسِ عَلَيْهِ وَعَلَى الْأُمَّة" (٤٥).

٣- عبادة في الليل ودعوة في النهار: وشغل النبي ﷺ في النَّهَارِ بِالْدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ وَإِبْلَاغِ الْقُرْآنِ وَتَعْلِيمِ الدِّينِ وَمُجَابَةِ الْمُشْرِكِينَ وَافْتِقَادِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُسْتَضْعِفِينَ، فَعَبَّرَ عَنْ جَمِيعِ ذَلِكَ بِالسَّجِّحِ الطَّوِيلِ" (٤٦).

٤- الذكر ليس مجرد حركة اللسان فقط: يقول سيد قطب: "وذكر اسم الله، ليس هو مجرد ترديد هذا الاسم الكريم باللسان، على عدة المسبحة المثوية أو الألفية! إنما هو ذكر القلب الحاضر مع اللسان الذاكر أو هو الصلاة ذاتها وقراءة القرآن فيها، والتبتل هو الانقطاع الكلي عما عدا الله، والاتجاه الكلي إليه بالعبادة والذكر، والخلوص من كل شاغل ومن كل خاطر، والحضور مع الله بكامل الحس والمشاعر" (٤٧).

٥- الأمر بالصبر وعدم الانشغال بغير الهدف: قال ابن كثير: "يَقُولُ تَعَالَى أَمْرًا رَسُولُهُ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى مَا يَقُولُهُ مَنْ كَذَّبَهُ مِنْ سُفَهَاءِ قَوْمِهِ، وَأَنْ يَهْجُرَهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً وَهُوَ الَّذِي لَا عِتَابَ مَعَهُ ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾" (٤٨).

(٤٢) الكشف، الزمخشري ٤/٧٥٠.

(٤٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/٢٥٥.

(٤٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/٣٨٧.

(٤٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/٢٥٨.

(٤٦) المرجع نفسه، ٢٩/٢٦٤.

(٤٧) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/٣٧٤٦.

(٤٨) تفسير ابن كثير، ٨/٢٥٦.

المطلب الثالث: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في سورة المزمل

من خلال استقراء معاني السورة وأقوال المفسرين، يمكن استخلاص المعالم التربوية الآتية:

- ١- **معلم الإعداد الروحي قبل العمل:** الشخصية المسلمة لا تنطلق في الدعوة والعمل دون تركية نفس واتصال بالله فحركة المسلم لله ومن أجل الله ولذا نجد في ميدان الدعوة أن الكلمة التي تنطلق وهي تحمل روح صاحبها المتعلق بالله تحدث أثراً عميقاً في نفس السامع والكلمة التي تخرج بلا روح لا يتجاوز أثرها الاذان.
- ٢- **معلم قيمة قيام الليل في تهيئة النفس لتحمل مشاق الدعوة والصبر عليها:** قيام الليل وسيلة لتقوية الإيمان، وتثبيت القلب، وصناعة الصبر قال سبحانه وتعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُكَ عِثَارُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [المزمل: ٩]

- ٣- **معلم التوازن بين إصلاح النفس ودعوة الغير:** فالمسلم مشغول بإصلاح ذاته وتفقد عيوبه وهو في نفس الوقت داعية إلى الله أمرٌ بالمعروف ناهٍ عن المنكر خوفاً من الوقوع في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]

- ٤- **معلم التدرج في التكليف:** التخفيف في آخر السورة يدل على مراعاة طاقة الإنسان وحاجاته المتنوعة وكذلك إيجاب قيام نصف الليل ثم التخفيف من ذلك، قال ابن عاشور: "وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ اسْتِثْنَاءٌ مِنَ اللَّيْلِ أَيُّ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُ، فَلَمْ يَتَعَلَّقْ بِإِجَابِ الْقِيَامِ عَلَيْهِ بِأَوْقَاتِ اللَّيْلِ كُلِّهَا، وَنَصَفَهُ بَدَلًا مِنْ قَلِيلًا بَدَلًا مُطَابِقًا وَهُوَ تَبْيِينٌ لِإِجْمَالِ قَلِيلًا فَجَعَلَ الْقَلِيلَ هُنَا النَّصْفَ أَوْ أَقَلَّ مِنْهُ بِقَلِيلٍ، وَفَائِدَةُ هَذَا الإِجْمَالِ الإِيْمَاءُ إِلَى أَنَّ الْأَوَّلَى أَنْ يَكُونَ الْقِيَامُ أَكْثَرَ مِنْ مُدَّةِ نِصْفِ اللَّيْلِ وَأَنْ جَعَلَهُ نِصْفَ اللَّيْلِ رَحْمَةً وَرُخْصَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، وَيَدُلُّ لِذَلِكَ تَعْقِيْبُهُ بِقَوْلِهِ: أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا أَيُّ انْقُصْ مِنَ النَّصْفِ قَلِيلًا، فَيَكُونُ زَمَنُ قِيَامِ اللَّيْلِ أَقَلَّ مِنْ نِصْفِهِ، وَهُوَ حِينَئِذٍ قَلِيلٌ فَهُوَ رُخْصَةٌ فِي الرُّخْصَةِ" (٤٩).

- ٥- **معلم الثبات أمام أعباء الرسالة:** قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾، قَالَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ: "إِنَّ الثَّقَلَ فِي وَزْنِ الثَّوَابِ، وَقِيلَ فِي التَّكْلِيفِ بِهِ، وَقِيلَ مِنْ أَثْنَاءِ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ، وَكُلُّ ذَلِكَ ثَابِتٌ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ" (٥٠)، وأكد ذلك البيضاوي فقال: "إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا يعني القرآن فإنه لما فيه من التكليف الشاقة ثقيل على المكلفين سيما على الرسول ﷺ إذ كان عليه أن يتحملها ويحملها أمته" (٥١)، وبهذا يتبين مدى أهمية التربية على الثبات، وتحمل التبعات حتى يتمكن من أن يجاهد به جهاداً كبيراً، ويقيم به الحجة فيجيبا من حي عن بيعة ويهلك من هلك عن بيعة.

(٤٩) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/٢٥٩.

(٥٠) أضواء البيان، الشنقيطي، ٨/٣٥٨.

(٥١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٩/٢٥٩.

٦- معلم التوكل على من بيده تصريف الأمور: قال ابن عاشور: ﴿فَاتَّخَذَهُ وَكِيلًا﴾، وَإِذْ كَانَ الْأَمْرُ بِاتِّخَاذِ وَكِيلٍ مُسَبِّحًا عَنْ كَوْنِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كَانَ ذَلِكَ فِي قُوَّةِ النَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ وَكِيلٍ غَيْرِهِ، إِذْ لَيْسَ غَيْرُهُ بِأَهْلٍ لِاتِّخَاذِهِ وَكِيلًا^(٥٢).

٧- معلم الصبر المنهجي والتسامح السلوكي ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾: يقول سيد قطب: "نجد التوجيه إلى الصبر، بعد التوجيه إلى القيام والذكر، وهما كثيرًا ما يقتزمان في صدد تزويد القلب بزد هذه الدعوة في طريقها الشاق الطويل، سواء طريقها في مسارب الضمير أو طريقها في جهاد المناوئين، وكلاهما شاق عسير، نجد التوجيه إلى الصبر ﴿وَأَصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾ مما يغضب ويحق، ﴿وَأَهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ لا عتاب معه ولا غضب، ولا هجر فيه ولا مشادة، وكانت هذه هي خطة الدعوة في مكة - وبخاصة في أوائلها، كانت مجرد خطاب للقلوب والضمائر، ومجرد بلاغ هادئ ومجرد بيان منير، والهجر الجميل مع التطاول والتكذيب، يحتاج إلى الصبر بعد الذكر، والصبر هو الوصية من الله لكل رسول من رسله، مرة ومرة ومرة ولعباده المؤمنين برسله، وما يمكن أن يقوم على هذه الدعوة أحد إلا والصبر زاده وعتاده، والتسامح جنته وسلاحه، والعفو ملجؤه وملأذه^(٥٣).

المطلب الرابع: الدلالات التربوية المستفادة

١- ضرورة الجمع بين العبادة والعمل في بناء الشخصية المسلمة: فالمسلم يدرك أن عبادته تكتمل بأن يتعدى أثرها، ويعم نفعها، ويدرك أن عبادة الليل لا تغني عن السبح الطويل في النهار.

٢- العناية بالتركية الروحية بوصفها أساس الاستقامة: السائر إلى الله يدرك أنه مسؤول عن إصلاح نفسه قبل إصلاح غيره، وآتى له أن يرتقي إلى معارج المصلحين، ونفسه من الصلاح خاوية، وروحه من ثياب التقوى عارية، فهو دائم الحرص على استقامت نفسه وتركيتها، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾.

٣- ترسيخ مبدأ التوازن بين التكليف والطاقة البشرية: هنا نجد التوجيه الإلهي في أول المراحل قائم على التوازن في كل اتجاه حتى يتمكن الإنسان من الاستمرار حتى النهاية وتحمل الأعباء بكل اقتدار، وحتى يشكل الشخصية العلية في جميع النواحي، فلا يطغى جانب على جانب، بل يعطي كل ذي حق حقه، وهذا ما يميز التربية الإسلامية عن ما سواها.

٤- إعداد الداعية نفسيًا لمواجهة التحديات: كلما كان الداعية قويًا متماسكًا من داخله، كان قادرًا على مواجهة كل التحديات الخارجية مهما عظمت، فالتربية الإسلامية هي التي تمنح أبناءها الأمان الداخلي وحينئذ يستطيعون أن يمنحوه للآخرين.

(٥٢) المرجع نفسه، ٢٩/٢٦٧.

(٥٣) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٦/٣٧٤٧.

خلاصة المبحث:

تُبرز سورة المزمل جانب الإعداد الروحي في بناء الشخصية المسلمة، وتؤكد أن النجاح في حمل الرسالة والدعوة لا يتحقق إلا بعمق الصلة بالله، وقوة الإيمان، والقدرة على الصبر والثبات، وهي معالم تكتمل بها صورة البناء التربوي في المرحلة المكثية الأولى.

المبحث الخامس: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في سورة الفاتحة

المطلب الأول: مكانة سورة الفاتحة ووقت نزولها

المطلب الثاني: التحليل البياني لآيات السورة

المطلب الثالث: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في سورة الفاتحة

المطلب الرابع: الدلالات التربوية المستفادة

تمهيد المبحث:

تُعدّ سورة الفاتحة أعظم سور القرآن الكريم، وقد حظيت بمكانة خاصة في النصوص الشرعية، حتى سُميت بـ "أم الكتاب" و"السبع المثاني"، وتمثل هذه السورة خلاصة المنهج القرآني في بناء العلاقة بين العبد وربّه، إذ جمعت أصول العقيدة، ومقاصد العبادة، ومعالم الهداية، في أسلوب موجز بليغ. وقد ذهب جمع من العلماء إلى أنّ سورة الفاتحة أول سورة كاملة نزلت، وإن لم تكن أول ما نزل مطلقاً^(٥٤)، الأمر الذي يمنحها بُعداً تأسيسياً مهماً في بناء الشخصية المسلمة في المرحلة المكثية الأولى، من حيث ترسيخ معاني العبودية، والاستقامة، والتوجه إلى الله تعالى.

المطلب الأول: مكانة سورة الفاتحة ووقت نزولها

سورة الفاتحة هي أجل سور القرآن وأرفعها قدراً، ولعظيم قدرها جعل الله قيام صلاة المسلم مشروطاً بقيامه بأدائها، عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال صلى الله عليه وسلم: ((لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب))^(٥٥)، واستقامته في الحياة مقرونة بسعيه الخيّر للالتزام بمبادئها وتصوراتها، فسورة الفاتحة فاتحة للكتاب وفاتحة للصلاة وفاتحة للحياة وفاتحة لشخصية المسلم، قال سيد قطب: "إن في هذه السورة من كليات العقيدة الإسلامية، وكليات التصور الإسلامي، وكليات المشاعر والتوجهات، ما يشير إلى طرف من حكمة اختيارها للتكرار في كل ركعة، وحكمة بطلان كل صلاة لا تذكر فيها"^(٥٦).

^{١-} أعظم سورة في القرآن: عن أبي سعيد الملقى رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ألا أعلمكم أعظم سورة في القرآن قبل أن تخرج من المسجد، فأخذ بيدي، فلما أردنا أن نخرج، قلت: يا رسول الله، إنك قلت لأعلمنكم أعظم سورة من القرآن، قال: الحمد لله رب العالمين، هي السبع المثاني، والقرآن العظيم الذي أوتيته))^(٥٧)، والأحاديث في فضلها كثيرة بما لا يتسع المجال لذكره، وقد اختلف العلماء في ترتيب نزول سورة الفاتحة،

(٥٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩٢/١، والمنار، محمد رشيد رضا ٣٢/١.

(٥٥) متفق عليه، البخاري ١٥١/١، ومسلم ٢٩٥/١.

(٥٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، ٢١/١.

(٥٧) رواه البخاري ١٧/٦.

ومكان نزولها إلا أنّ جمهورهم على أنّها سورة مكيّة، قال الإمام أبو حيان: "قَالَ عَلِيُّ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَقَتَادَةُ، وَأَبُو الْعَالِيَةِ، وَعَطَاءٌ، وَابْنُ جُبَيْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ جَبَانَ، وَجَعْفَرُ الصَّادِقُ، الْفَاتِحَةُ مَكِّيَّةٌ"^(٥٨)، وقال القاسمي: "وأما أول سورة نزلت كاملة فهي الفاتحة، ويروى في الأوائل غيرها، ولا منافاة، لأن الأوليّة حقيقة ونسبية"^(٥٩).

المطلب الثاني: التحليل البياني لآيات السورة

^{١-} **الحمد والثناء:** افتتحت السورة بالحمد لله، وهو اعترافٌ بنعمه وربوبيته وعنوان لمرحلة بين الرب والعبد والأرض والسماء، عنوانها الثناء والمدح واسداء الجميل، لا كما كانت تزعمه الأساطير السابقة من علاقة صراع مرير لا ينتهي بين آلهة السماء وسكان الأرض، وأن الحمد سبيل للحصول على العطاء الكريم الذي لا يغيض، والفيض الرباني الذي لا ينقطع فالحمد عنوان المزيد، قال الزمخشري: "الحمد والمدح أخوان، وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها"^(٦٠).

^{٢-} **التصور الاعتقادي الشامل:** سورة الفاتحة جمعت أصول الاعتقاد وأنواع التوحيد من الهية وربوبية وأسماء وصفات وإيمان بالرسول والكتب والملائكة واليوم الآخر فلا عجب أن تكون هذه السورة على لسان كل مسلم قراءة وترتلاً وفي عقله معرفةً وتصوراً، وفي قلبه إيماناً واعتقاداً، وقال الرازي: "هذه الآيات أصل في تقرير التوحيد والمعاد"^(٦١)، وقال ابن القيم: "اعْلَمْ أَنَّ هَذِهِ السُّورَةَ اشْتَمَلَتْ عَلَى أُمِّهِاتِ الْمَطَالِبِ الْعَالِيَةِ أَمَّ اشْتِمَالِ، وَتَضَمَّنَتْهَا أَكْمَلُ تَضَمُّنٍ، فَاشْتَمَلَتْ عَلَى التَّعْرِيفِ بِالْمَعْبُودِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِثَلَاثَةِ أَسْمَاءٍ، مَرْجِعُ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى وَالصِّفَاتِ الْعُلْيَا إِلَيْهَا، وَمَدَارُهَا عَلَيْهَا، وَهِيَ: اللَّهُ، وَالرَّبُّ، وَالرَّحْمَنُ، وَبُيِّنَتِ السُّورَةُ عَلَى الْإِلَهِيَّةِ، وَالرُّبُوبِيَّةِ، وَالرَّحْمَةِ"^(٦٢).

^{٣-} **الترتبة المتدرجة الرحيمة:** الربوبية التي تجلت ملامحها في هذه السورة توحى بشعور عميق من السكون والاطمئنان، فالرب هو الراعي، والحامي، وكل أوامره ونواهيته تأتي في مصلحة المتربي، وإن كانت على خلاف مراده، وقد وصف الاسم الكريم بأربعة أوصاف رب العالمين الرحمن، الرحيم، مالك يوم الدين، كلها تشعر بالحماية والرعاية، وكمال العناية، وقال ابن عاشور: "وَالْأَظْهَرُ أَنَّ مُشْتَقَّ مِنْ رَبِّهِ بِمَعْنَى رَبَّاهُ وَسَاسَهُ، لَا مِنْ رَبِّهِ بِمَعْنَى مَلِكُهُ لِأَنَّ الْأَوَّلَ الْأَنْسَبَ بِالْمَقَامِ هُنَا إِذِ الْمُرَادُ أَنَّهُ مُدَبِّرُ الْخَلَائِقِ وَسَائِسُ أُمُورِهَا وَمُبْلِغُهَا غَايَةً كَمَا هِيَ"^(٦٣).

^{٤-} **المسؤولية الذاتية:** هذا أصل عظيم أشارت إليه السورة، فالإنسان يتحمل تبعه ما يقوم به، لكنه لا يحمل جريرة عمل غيره، مهما كان قربه منه أو علاقته به، فالدين هو الحساب والجزاء وكما تدين تدان، والجزاء من جنس العمل ولا تزر وزر أخرى، قال ابن عاشور: "إِنِّشَارَ لَفْظِ الدِّينِ (أَيِ الْجَزَاءِ) لِلإِشْعَارِ بِأَنَّهُ مُعَامَلَةٌ

(٥٨) البحر المحيط، ابن حيان، ٢٩/١.

(٥٩) محاسن التأويل، القاسمي، ٥٠٦/٦.

(٦٠) الكشف، الزمخشري، ٨/١.

(٦١) التفسير الكبير، الرازي، ١٦٧/١.

(٦٢) مدارج السالكين، ابن قيم، ٣١/١.

(٦٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ١٦٦/١.

الْعَامِلِ بِمَا يُعَادِلُ أَعْمَالَهُ الْمَجْرِي عَلَيْهِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَذَلِكَ الْعَدْلُ الْخَاصُّ قَالَ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾ [غافر: ١٧] ^(٦٤).

^{٥-} **العبودية الخالصة:** هذا الأمر يشكل ركناً عظيماً من أركان التصور الإسلامي الذي يقوم على توحيد الله في الخلق وفي الأمر، قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالله ليس له شريك في خلقه لعباده فيجب ألا يكون له شريك في عبوديتهم له، يقول سيد قطب: "﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة، فلا عبادة إلا لله، ولا استعانة إلا بالله" ^(٦٥).

وكما أن للإنسان منهجاً عبادياً يعرف من خلال الوحي - اللوح المقروء - يسعى إلى أن يصل فيه إلى كمال التبعّد، ويقوم على كمال الإخلاص والمتابعة، فهناك أمر آخر وهو البحث عن منهج الاستخلاف في الأرض المبني على السنن الكونية التي يصل إليها الإنسان من خلال البحث والنظر في (اللوحة المنظورة)، ولا يمكن أن يصل إلى شيء منه إلا بكمال الاستعانة بالله، فالمسلم يسعى إلى النجاح الآخروي بكمال العبادة والنجاح الحياتي بكمال الاستعانة، قال ابن كثير: "وَقَدِّمَ الْمُفْعُولُ وَهُوَ ﴿إِيَّاكَ﴾، وَكُرِّرَ لِلإِهْتِمَامِ وَالْحَضَرِ، أَي: لَا نَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاكَ، وَلَا نَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْكَ، وَهَذَا هُوَ كَمَالُ الطَّاعَةِ، وَالَّذِينَ يَرْجِعُ كُلُّهُ إِلَى هَذَيْنِ الْمُعْنَيْنِ، وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَلْفَاتِحَةُ سِرِّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَةُ: ٥] فَأَلَوَّلُ تَبَرُّؤُ مِنَ الشِّرْكِ، وَالثَّانِي تَبَرُّؤُ مِنَ الْحَوْلِ وَالْقُوَّةِ، وَالتَّفْوِيزِ" ^(٦٦).

^{٦-} **الهداية مطلب حياة:** لا مطلب يستحق أن يعيش المسلم له طوال حياته مثل الهداية إلى الصراط المستقيم، فالحاجة له بعدد الانفاس، فلا عجب أن يطلبه المسلم من ربه سبعة عشر مرة في اليوم، هذا إذا صلى الفرائض فقط، إن الاستقامة لمسيّت حصراً على شيء معين، بل أصيلة في كل نواحي الحياة المادية والمعنوية، في الأقوال والأفعال والاعتقادات في انتظام حركة الجسد على الأرض، وانتظام حركة الافلاك في أجرام السماء، والخروج عن الاستقامة تعني الفوضى التي تقود إلى الخراب والدمار، وهذا المطلب العظيم لا يحققه إلا الرب الكريم، وقد تنوعت ألفاظ المفسرين في تعبيرهم عن معنى الصراط المستقيم ولكن مدلولاتها واحدة فهي إلى التمثيل أقرب، قال الطبري: "أجمعت الأمة من أهل التأويل جميعاً على أن ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو الطريق الواضح الذي لا اعوجاج فيه" ^(٦٧).

^{٧-} **التمايز بين والاقتداء الصالح:** يعيش المسلم حياته سائرًا على الطريق المستقيم بين طريقتين: طريق المغضوب عليهم ممن علموا وخالفوا على علم، والضالين الذين عبدوا على جهل، فكأن ذلك مؤشر دائم يستدل به أثناء سيره إلى الله، فطريقه مستقيم لا يشبه صراط أهل الجحيم من المغضوب عليهم والضالين/ ويبقى مع

(٦٤) المرجع نفسه، ١/١٧٧.

(٦٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/١٢٥.

(٦٦) تفسير ابن كثير، ١/١٣٤.

(٦٧) تفسير الطبري، ١/١٧٠.

الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴿مَنْ تَقَدَّمَ وَصَفُهُمْ وَنَعْتُهُمْ، وَهُمْ أَهْلُ الْهُدَايَةِ وَالْإِسْتِقَامَةِ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَرُسُلِهِ، وَأَمْتِنَالِ أَوَامِرِهِ وَتَرَكْ نَوَاهِيهِ وَزَوَاجِرِهِ، غَيْرِ صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ، [وَهُمْ] الَّذِينَ فَسَدَتْ إِرَادَتُهُمْ، فَعَلِمُوا الْحَقَّ وَعَدَلُوا عَنْهُ، وَلَا صِرَاطِ الضَّالِّينَ وَهُمْ الَّذِينَ فَقَدُوا الْعِلْمَ فَهُمْ هَائِمُونَ فِي الضَّلَالَةِ لَا يَهْتَدُونَ إِلَى الْحَقِّ، وأكد الكلام بلا لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّ تَمَّ مَسْلُكَيْنِ فَاسِدَيْنِ، وَهُمَا طَرِيقَتَا الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى" (٦٨)، ويقول سيد قطب: "وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية، ومن القوى الطبيعية، فأما القوى الإنسانية - بالقياس إلى المسلم - فهي نوعان: قوة مهتدية، تؤمن بالله، وتتبع منهج الله، وهذه يجب أن يواظرها، ويتعاون معها على الخير والحق والصالح... وقوة ضالة لا تتصل بالله ولا تتبع منهجه، وهذه يجب أن يجارها ويكافحها ويغير عليها" (٦٩).

المطلب الثالث: المعالم التربوية للشخصية المسلمة في سورة الفاتحة

من خلال استقراء معاني السورة وأقوال المفسرين، يمكن استخلاص المعالم الآتية:

- ١- **معلم الحمد والشكر:** هذا هو خلق الكبار في قيمهم العظماء في تعاملهم، فهم يعرفون الفضل لأهله، ويشنون على الفعل الجميل، ويشكرون لصاحب المعروف صنيعه، والله أجل من عبد، وأعظم من شكر، وأوسع من أعطى، ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله.
- ٢- **معلم التربية الربانية الرحيمة:** الشخصية المسلمة تبنى على الانسجام والوفاء والرحمة، فالله يكرم وينعم والعبد يحمد ويشكر، الرب يرعى ويحمي، والعبد يخضع ويستعين، والخلق يتخلقون بصفات خالقهم ويعملون بمقتضى أسمائه وصفاته قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّكُمْ نِيْمًا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الْكِتَابِ وَيَمَّا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿آل عمران: ٧٩﴾، والربانيون هم العلماء، الفقهاء، الحكماء، الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره (٧٠).
- ٣- **معلم ترسيخ العبودية لله وحده:** قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ يضع أساس التوحيد العملي في حياة المسلم، فمن لم يكن عبداً لله كان عبداً لسواه، وينقص من عبودية المسلم لربه بقدر ما يصرفه من خضوع وعبودية لغيره وكمال العبودية لله تعني كمال الحرية والعزة التي هي مطلب كل شخصية سوية قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]

٤- **معلم الجمع بين العبادة والاستعانة:** الشخصية المسلمة تجمع بين العمل والاعتماد على الله، وهذه صورة من أجمل صور التوازن والاعتدال في الشخصية المسلمة، فيدها مغروسة في الأرض، وقلبها يحوم حول العرش، جوارحها تباشر الأسباب وفؤادها معلق برب الأسباب، تسعى إلى نيل الآخرة ولا تنسى نصيبها من الدنيا، تحسن العبادة في محراب الصلاة وتتقن العمل في محراب الحياة، إن آية ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

(٦٨) تفسير ابن كثير، ١/٤٠.

(٦٩) في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/٢٥.

(٧٠) تفسير الطبري، ٦/٥٤٣.

هي سر الحياة كما أن الفاتحة سر الكتاب، قال ابن كثير: "وَهَذَا كَمَا قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: الْفَاتِحَةُ سِرُّ الْقُرْآنِ، وَسِرُّهَا هَذِهِ الْكَلِمَةُ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الْفَاتِحَةُ: ٥]" (٧١).

٥- معلم طلب الهداية الدائم: الهداية ليست مرحلة تُنال مرة واحدة، بل مسار دائم، فالشخصية المسلمة دائمة

التعلق بالله تعلم يقيناً أنه لا يفوتها مطلب طلبته برهما، ولا تنال ما تطلبه بنفسها ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]، وأطيب الأقوال والأفعال والأخلاق والعقائد لا تنال إلا بهداية الله وتوفيقه ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ [الحج: ٢٤]، فهل هناك أجل وأعلى من صراط الحميد.

٦- معلم الوعي بالسنن الإلهية: إن التصور الواعي لدى الشخصية المسلمة الذي تستلهمه من فاتحة الكتاب يجعلها تعيش حالة الرشد الحضاري الكامل، فهي لا تنطلق في مشاريعها الخافضة، أو الرافعة، تجاه من تحب، أو من تكره من منطلق الخرافات والأوهام، أو العواطف والانفعالات التي يجاوزها الدليل، ويخطوها النظر، بل تتعامل بالمنهج السني القائم على الوعي بسنن الله الكونية، والشرعية الثابتة، والشاملة، والمطرودة، فترفع الشقاء عن الإنسانية بمنهجية الصراط المستقيم، لتقيم للحق صرحاً يسكنه الذين انعم الله عليهم، ولا تفتأ تستجمع قوة الحق لتقذف بها باطل المغضوب عليهم والضالين فتدغمه، فاذا هو زاهق ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

المطلب الرابع: الدلالات التربوية المستفادة

١- بناء الشخصية المسلمة على أساس التوحيد الخالص: إن الاوثان اليوم التي تتخطف الناس لم تعد صنما من حجر، أو من حلوى بل أصبحت تتشكل في عدد لا يحصى من الأشكال، والأفكار التي يتعبد لها الانسان في محراب الخوف، أو الرجاء، أو المحبة يحلل ما أحلت ويحرم ما حرمت وتلك عبوديتهم لهم، فعلى المتصدين للتربية اليوم أن يعلموا أن الشرك قد انتقل من شرك القبور والقصور إلى شرك التقنية الحديثة، ولا عاصم اليوم إلا بالركوب على سفينة التوحيد الخالص ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْأَمْخَصِينَ﴾ [الأنفال: ٢٤]

٢- تربية المسلم على المراقبة والشعور بالمسؤولية أمام الله: لعل من أخطر ما تعانيه الأجيال المعاصرة كنتيجة للتقنية وعالم القرية الواحدة، هي نفسية التهرب من تحمل التبعة والمسؤولية على المستوى الفردي، وتحطيم معاني الانضباط والمراقبة الذاتية لله، فأصبحت العبادة متعة لا ضرورة والحرام هو ما لم تستطع الوصول إليه، وهنا تظهر أهمية المسار التربوي الذي يرسخ في النفوس مبدأ تحمل المسؤولية عن ما صدر عن الانسان من أقول أو أفعال، وغرس مبدأ اذا كان لرقابة البشر حدود فرقابة الله لا حدود لها ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

٣- ترسيخ مبدأ الالتجاء إلى الله في كل شؤون الحياة: حين تستوحش القلوب لا يذهب وحشتها إلا الإقبال على الله، وحين يملأها الجوع فلا يشبعها إلا ذكر الله، ومحبتة، والانس بمناجاته، إن عالم الماديات جعل الناس بين معظم لنفسه وقدراته، فموصول لها إلى درجة الإلهية، أو محتقر لها فملحقها بعالم العجز والعدم، والعلاج لذلك يكمن في أن توجه النفوس إلى الله خوف ورجاء ومحبة، فالله إذا أعطى أدهش وإذا حاسب فتش، وهو الكريم الوهاب ﴿رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ١٠].

٤- توجيه السلوك الإنساني نحو الاستقامة والاعتدال: لقد أصبحت المهمة الكبرى لكل مرب هي تقييم وتقويم السلوك الفردي والجماعي، وتقويم القلب والعقل واللسان والجوارح، وهذا يتطلب وعيًا ورغبة من الجميع، وبرامج فكرية وتربوية وروحية تحقق ذلك، وهذا ما تبنيه وتؤكد عليه سورة الفاتحة وتذكر المسلم به في كل صلاة.

خلاصة المبحث:

تقدم سورة الفاتحة نموذجًا متكاملًا لبناء الشخصية المسلمة، من حيث ترسيخ العقيدة، وتصحيح وجهة العبادة، وبناء الوعي الأخلاقي والسلوكي، مما يجعلها حجر أساس في المنهج التربوي القرآني في المرحلة المكيّة الأولى.

المبحث السادس: التركيب والمقارنة واستخلاص المعالم وكيف نواجه التحديات المعاصرة

المطلب الأول: التكامل المنهجي بين سور أوائل الوحي

المطلب الثاني: المعالم الإيمانية والعلمية والعقلية

المطلب الثالث: المعالم الأخلاقية والسلوكية والدعوية والاجتماعية

المطلب الرابع: التوازن والتدرج في بناء الشخصية المسلمة

تمهيد المبحث:

بعد دراسة السور الأربع: العلق، والمدثر، والفاتحة، والمزمل دراسة تحليلية تربوية، يظهر بوضوح أن أوائل ما نزل من القرآن الكريم لم يأت متفرق المعاني، ولا متباعد المقاصد، بل جاء وفق منهج تربوي متكامل، يهدف إلى بناء الشخصية المسلمة بناءً تدريجيًا متوازنًا، يجمع بين العلم والإيمان، والعمل والتزكية، والعبودية والمسؤولية. ويهدف هذا المبحث إلى تركيب النتائج المتفرقة التي انتهت إليها المباحث السابقة، وإبراز المعالم الكلية للشخصية المسلمة كما تتشكل في ضوء أوائل الوحي، مع بيان التكامل بين هذه السور في تحقيق هذا الهدف.

المطلب الأول: التكامل المنهجي بين سور أوائل الوحي

عند تأمل السور المدروسة، يتبين أن بينها تدرجًا مقصودًا في بناء الإنسان:

سورة العلق: أسست لبناء العقل والوعي من خلال العلم والقراءة وربط المعرفة بالله تعالى.

سورة المدثر: نقلت الإنسان من مرحلة التلقّي إلى مرحلة التكليف والإنذار وتحمل المسؤولية.

سورة المزمل: ركزت على الإعداد الروحي والتزكية النفسية لمواجهة أعباء الرسالة.

سورة الفاتحة: قدّمت الإطار الجامع لمعاني العبودية والهداية والاستقامة

وهذا التدرج يعكس منهج القرآن في تربية الإنسان من الداخل قبل الخارج، ومن الفرد قبل الجماعة.

المطلب الثاني: المعالم الإيمانية والعلمية والعقلية

أولاً: المعالم الإيمانية: تجلّت المعالم الإيمانية في أوائل الوحي في عدد من الأسس، من أبرزها:

- ١- ترسيخ التوحيد: من خلال تعظيم الله، وربط كل حركة وسكنة باسمه سبحانه.
 - ٢- تعميق الصلة بالله: عبر العبادة، والدعاء، وقيام الليل، والاستعانة بالله في كل شؤون الحياة.
 - ٣- الإيمان بالآخرة: كما ظهر في معاني الحساب والجزاء في سورة الفاتحة وغيرها.
- وهذه المعالم الإيمانية تشكّل الأساس العقدي الذي تُبنى عليه بقية جوانب الشخصية.
- ثانياً: المعالم العلمية والعقلية:** يتّضح من سورة العلق بوجه خاص، ومن غيرها من السور، أن القرآن جعل العلم أساساً للبناء التربوي، ويتجلّى ذلك في:

- ١- الأمر بالقراءة والتعلّم.
 - ٢- تعظيم شأن القلم والتعليم والارتباط بأدواته.
 - ٣- ربط المعرفة بالإيمان والتوحيد.
- وهو ما يدلّ على أن الشخصية المسلمة شخصية واعية، قائمة على الفهم والبصيرة، لا على الجهل أو التقليد الأعمى.

المطلب الثالث: المعالم الأخلاقية والسلوكية والدعوية والاجتماعية

أولاً: الأخلاقية والسلوكية: أسهمت أوائل ما نزل من القرآن في بناء منظومة أخلاقية متكاملة، من خلال:

- ١- التواضع: بتذكير الإنسان بأصله وضعفه.
 - ٢- الإخلاص: في العمل والدعوة، وترك المرفء وطلب الجزاء الدنيوي.
 - ٣- الطهارة الظاهرة والباطنة: كما في الأمر بتطهير الثياب وهجر الرجز.
 - ٤- الصبر والثبات: بوصفهما شرطين أساسيين لحمل الرسالة.
- وهذه الأخلاق تُعدّ ركائز السلوك العملي للشخصية المسلمة.
- ثانياً: الدعوية والاجتماعية:** لم يقتصر البناء التربوي في أوائل الوحي على الجوانب الفردية، بل امتدّ إلى البعد الدعوي والاجتماعي، من خلال:

- ١- تحميل المسلم مسؤولية الإنذار والإصلاح.
 - ٢- توجيه الخطاب نحو المجتمع، لا الانعزال عنه.
 - ٣- إعداد الداعية نفسياً وروحياً لتحمل الأذى.
- وبذلك يتكوّن الإنسان المسلم القادر على التفاعل الإيجابي مع مجتمعه.

المطلب الرابع: التوازن والتدرج في بناء الشخصية المسلمة

أولاً: التوازن: من أبرز ما يميّز المنهج التربوي في أوائل الوحي تحقيق التوازن بين:

- العبادة والعمل
- العقل والروح
- الفرد والجماعة

–التكليف والطاقة البشرية

وهو توازن دقيق يُجَنَّب الإنسان الإفراط والتفريط، ويجعل الشخصية المسلمة متوازنة مستقيمة.

وتتجلى ملامح أخرى للتوازن والربط وهي:

أ– توازن الربط عبر الثنائيات التكاملية.

فكيف توازن هذه السور بين جوانب الشخصية؟

– توازن الظاهر والباطن:

في المزمّل: تركيز على طهارة الباطن والتبتّل ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾.

في المدثر: تركيز على طهارة الظاهر والهيئة ﴿وَرَبَّكَ فَطَهِّرْ﴾.

المعلم: الشخصية المسلمة شخصية نظيفة داخليًا وخارجيًا.

– توازن الاتصال والمنفصل:

في المزمّل: الانفصال عن الخلق للاتصال بالخالق في قيام الليل.

في المدثر: الاتصال بالخلق لإيصال رسالة الخالق بالإنذار والتبليغ.

المعلم: المسلم ليس راهبًا دائمًا ولا دنيويًا دائمًا، بل هو رباني بالليل، مصلح بالنهار.

ب– توازن الربط عبر وحدة الهدف – العبودية لله

تجمع السور الأربع معالم الشخصية تحت سقف واحد هو التحرر من المركزية البشرية إلى المركزية الإلهية:

العلق: العلم ليس للمباهاة بل ﴿بِأَسْمَرٍ رَّيَّكُ﴾.

المدثر: الكبرياء ليس للنفس بل ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾.

المزمّل: الصبر ليس ضعفًا بل ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾.

الفاتحة: الاستعانة ليست بالذات بل ﴿وَايَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

ثانيًا: التدرج التربوي من الميлад المعرفي إلى التأثير الاجتماعي

سورة العلق – التكوين العقلي: هي نقطة الصفر، والمعلم هنا هو العلم، فالشخصية المسلمة تبدأ من القراءة

والتعلم، لا يمكن لمسلم أن يتحرك بلا وعي، وهي مرحلة إعداد الأدوات.

–سورة المزمّل – التكوين النفسي: بعد العلم، يأتي الزاد، فالعلم وحده قد يؤدي للغرور – كما حذرت العلق:

أن رآه استغنى – فجاءت المزمّل لتربط هذا العقل بالروح عبر قيام الليل، وهي مرحلة بناء القوة الداخلية وتحمل

القول الثقيل.

–سورة المدثر – التكوين الحركي: بعد اكتمال العلم في العلق، والقوة الروحية في المزمّل، يأتي وقت الأداء، ﴿فَرُّ

فَأَنْذِرْ﴾ هي مرحلة الخروج للمجتمع، العلم والعبادة ليسا للانعزالية، بل للإصلاح.

–سورة الفاتحة – التكوين المنهجي: هي الإطار الدائم لكي لا يضل المسلم في حركته أو يغتر بعلمه، جاءت

الفاتحة لتكون البوصلة اليومية التي تضبط إيقاع العلم والعبادة والحركة في صراط واحد مستقيم.

إن معالم الشخصية المسلمة في أوائل ما نزل قد رسمت نسيجاً متكاملًا؛ يبدأ بعقل يقرأ في العلق، يسانده قلب يتعبد في المزمل، يوجهه جسد يتحرك ويصلح في المدثر، تحميه روح تستقيم على المنهج وتطلب الهداية في كل صلاة في الفاتحة.

المطلب الخامس: آليات مواجهة التحديات المعاصرة

أولاً: سورة العلق - مواجهة المادية الإلحادية وتأصيل مرجعية الوحي: جاءت سورة العلق لتحديث ثورة معرفية تقلب موازين الفلسفات المادية التي تفصل الإنسان عن خالقه.

١- التشخيص المقاصدي: تُعالج السورة أزمة الطغيان والاستغناء الناتج عن التمرکز حول المادة وعالم الشهادة وإغفال الغيب: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّا طَغَى ١﴾ أَنْ رَأَاهُ اسْتَغَى ٢.

٢- المعالم التأسيسية للشخصية:

- تأسيس المعرفة الموصولة بالخالق: البدء بِأَقْرَأُ بِأَسْمِ رَبِّكَ يعني أن القراءة، والبحث العلمي، واكتشاف الكون لا بد أن ينطلق من الإيمان بوجود الخالق الإلهي، لا من رؤية عبثية مادية.

- التوازن بين عالمين: الجمع بين أصل الإنسان المادي المتواضع مِنْ عِلْقٍ وبين تكريمه بالعلم والبيان عِلْمٌ بِالْقَلَمِ.

٣- آليات مواجهة التحدي المعاصر - العلمانية والمادية

٤- تقديم بديل معرفي: دمج العلوم الكونية والطبيعية بالقيم الأخلاقية والربانية، بحيث لا يتحول العلم التجريبي إلى أداة لإنكار الخالق، بل وسيلة لزيادة الإيمان.

٥- تفكيك وهم الاستغناء المادي: إبراز العجز الإنساني أمام الأوبة، الكوارث، والأزمات النفسية المعاصرة لإثبات أن المادة وحدها لا تكفي لإسعاد البشرية.

ثانياً: سورة المدثر - مواجهة الاتكالية والسيولة الأخلاقية وتأصيل المسؤولية: انتقلت التربية القرآنية بالشخصية المسلمة من مرحلة البناء الداخلي التأسيسي إلى مرحلة الفاعلية الاجتماعية ومواجهة السلبية.

١- التشخيص المقاصدي: تعالج السورة خطورة الانكفاء على الذات، والاتكالية، والهروب من المسؤولية بحجة فساد الواقع أو صعوبة التغيير.

٢- المعالم التأسيسية للشخصية

٣- النهوض الرسالي الدائم: قُمْ فَأَنْذِرْ أمر حاسم بالخروج من مربع الراحة والانتظار إلى مربع الفعل والتحذير والإصلاح.

٤- التميز الأخلاقي والطهور: وَتَيَّابُكَ فَطَهَّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ تعني بناء حصانة قيمية ونظافة داخلية وخارجية تميز المسلم عن بيئة الفساد والسيولة الأخلاقية.

٥- العطاء غير المشروط: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ حظر لرؤية العمل كبيراً أو انتظار المقابل الدنيوي، مما يمنع الإحباط والانتكاس.

٦- آليات مواجهة التحدي المعاصر - السلبية والعدمية

٧- تفعيل فقه المبادرة: صناعة مؤسسات ومشاريع مجتمعية تسد الثغور، بدل الاكتفاء بنقد الواقع البائس.

٨- ترسيخ المسؤولية الفردية المجتمعية: مواجهة ثقافة السيولة والأنانية المعاصرة من خلال إبراز مفهوم الحساب المسؤول في السورة ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾.

ثالثاً: سورة المزمل - مواجهة الهشاشة الروحية والنفسية وتأصيل الصلابة: التحولات الكبرى تحتاج إلى زاد استثنائي، وسورة المزمل هي بيان التأهيل النفسي والروحي لحمل التكليف المعاصرة.

١- التشخيص المقاصدي: تُعالج السورة الهشاشة النفسية، والاحتراق الداخلي، والضعف أمام الضغوط والمغريات المستمرة في العصر الحديث.

٢- المعالم التأسيسية للشخصية

٣- بناء الحصانة بالخلوة التعبدية: ﴿فَرُّ إِلَيْكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ هو تدريب شاق لتغذية الروح عندما ينام الآخرون، لخلق توازن مع صخب الحياة الاستهلاكية.

٤- الاستعداد للثقل التكليفي: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ إشارة إلى أن المبادئ الكبرى تحتاج إلى نفوس قوية وراسخة، لا نفوس هشة تنهار عند أول عقبة.

٥- الانقطاع القلبي للخالق بالتبتل: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ التحرر من التعلق بالأسباب الدنيوية والاعتماد الكلي على الله (المركزية الإلهية).

٦- آليات مواجهة التحدي المعاصر - التشتت والاضطراب النفسي

٧- العلاج بالقرآن بالترتيل والتدبر: اتخاذ ورش تدريبية قرآنية ﴿وَرَقِلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ كوسيلة لتثبيت القلوب وتخفيف القلق الوجودي والاكتئاب المعاصر.

٨- الصبر الجميل الحكيم: تفعيل آية ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ في التعامل مع الهجمات الفكرية وخطابات الكراهية والإحاد دون تشنج أو انفعال يفقد المسلم اتزانه.

رابعاً: سورة الفاتحة - مواجهة التيه الفكري وتأصيل النموذج المعرفي المستقيم: الفاتحة هي أم الكتاب، وهي الخريطة الكلية التي تضبط بوصلة العقل المسلم وسط بحار الأفكار المتلاطمة.

١- التشخيص المقاصدي: تُعالج السورة التيه الفكري، والنسبية الأخلاقية، والوقوع في شباك الإيديولوجيات المنحرفة (العولمة الثقافية، الليبرالية المتطرفة، المذاهب المادية).

٢- المعالم التأسيسية للشخصية

٣- وضوح الرؤية الكونية للربوبية والعبودية: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تحدد هوية الإنسان ومركزه في هذا الكون: هو عبد مستعين برب رحيم مالك ليوم الدين، مما ينفي تماماً فكرة العبثية والوجودية المظلمة.

٤- طلب الهداية والوضوح: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إقرار دائم بحاجة العقل إلى الوحي لتوجيهه، لأن العقل البشري وحده قد يضل ويشط.

٥- آليات مواجهة التحدي المعاصر - التيه والذوبان الثقافي

٦- النقد المعرفي للمذاهب المنحرفة: تصنيف السورة للمسارات البشرية إلى ثلاثة: صراط منعم عليهم وهم أهل الحق والعمل، ومغضوب عليهم وهم من عرفوا الحق وتركوه لعناد أو مصلحة، وضالين وهم من تاهوا بلا علم،

هذا التصنيف يعين المسلم على تفكيك ونقد التيارات الغربية والشبهات المعاصرة بناء على معايير قرآنية واضحة.

٧- الحفاظ على التميز الثقافي: تكرار الفاتحة يوميًا في الصلاة يمثل تلقينًا فكريًا يحمي المسلم من الذوبان الثقافي والتبعية الفكرية العمياء للنموذج الغربي المهيمن.

خلاصة البحث:

يتبين من هذا البحث أن أوائل ما نزل من القرآن الكريم قدّمت نموذجًا متكاملًا لبناء الشخصية المسلمة، يقوم على العلم والإيمان، والتركبة والعمل، والعبودية والمسؤولية، في إطار متوازن يراعي طبيعة الإنسان وقدرته، وقد جاء هذا البناء وفق منهج تربوي متدرّج، يهتئ الإنسان لحمل أمانة الاستخلاف في الأرض وأن السبيل الأمثل لمواجهة التحديات المعاصرة هو السير وفق المنهجية القرآنية التي توضحها السور الأولى من الوحي.

الخاتمة:

سعى هذا البحث إلى دراسة معالم الشخصية المسلمة في أوائل ما نزل من القرآن الكريم، من خلال استقراء الروايات الواردة في بيان ابتداء الوحي، وتحليل السور المكيّة الأولى: العلق، والمدثر، والمزمل، والفاتحة، في ضوء أقوال المفسرين، وكتب أسباب النزول، وكتب الحديث الشريف، مع التركيز على البعد التربوي التأسيسي في المرحلة المكيّة.

قد تبين من خلال مباحث البحث أن الوحي الأوّل لم يكن مجرد بداية زمنية لنزول القرآن الكريم، بل كان بداية منهجية واعية لبناء الإنسان المسلم، وفق تدرّج تربوي محكم، يبدأ بتكوين العقل والوعي، ثم ينتقل إلى تحمّل المسؤولية، ويُعزّز بالتركبة الروحية، ويُؤجّج بمعاني العبودية الجامعة والاستقامة.

كما أظهر البحث أن اختلاف الروايات والأقوال في تحديد أول ما نزل من القرآن الكريم ليس اختلاف تضاد، وإنما هو اختلاف تنوّع، يمكن الجمع بينه جمعًا علميًا يبرز حكمة التدرّج في الوحي، ويكشف عن أبعاد متعددة لبناء التربوي في المرحلة الأولى من الدعوة.

أولاً: النتائج

خلص البحث إلى عدد من النتائج، من أبرزها:

- ١- ثبت من خلال الروايات الصحيحة أن أول ما نزل من القرآن مطلقًا هو صدر سورة العلق (١-٥)، وأن سورة المدثر نزلت بعد فترة الوحي إيدانًا ببدء مرحلة الدعوة والإنذار.
- ٢- تبين أن القول بأولية سور أخرى، كالفاتحة أو المزمل، يُحمل على أولية مخصوصة، ككون الفاتحة أول سورة كاملة، أو المزمل أول ما تضمن تكليفيًا عمليًا بالإعداد الروحي.
- ٣- أظهرت سورة العلق أن العلم وربط المعرفة بالله هو الأساس الأول في بناء الشخصية المسلمة.
- ٤- أبرزت سورة المدثر معالم تحمّل المسؤولية، والإخلاص، والصبر بوصفها ركائز للشخصية الداعية.
- ٥- كشفت سورة المزمل عن مركزية التركبة الروحية وقيام الليل في إعداد الإنسان لحمل أعباء الرسالة.
- ٦- قدّمت سورة الفاتحة الإطار الجامع لمعاني العبودية، والهداية، والاستقامة، بما يجعلها خلاصة المنهج التربوي القرآني.

٧- تبين أن أوائل الوحي شكّلت منظومة متكاملة لبناء الشخصية المسلمة، تقوم على التوازن بين العقل والروح، والعبادة والعمل، والفرد والمجتمع.

ثانيًا: التوصيات

في ضوء ما انتهى إليه البحث من نتائج، يوصي الباحث بما يأتي:

- ١- العناية بدراسة السور المكتبة الأولى دراسة تربوية تحليلية، وربطها بواقع التربية والدعوة المعاصرة.
- ٢- الاستفادة من المنهج القرآني في التدرّج التربوي عند إعداد المناهج التعليمية والبرامج الدعوية.
- ٣- توجيه الباحثين إلى دراسة البناء التربوي للشخصية المسلمة في القرآن الكريم بوصفه منظومة متكاملة، لا نصوصًا جزئية متفرقة.
- ٤- التأكيد على مركزية التركيبة الروحية إلى جانب البناء العلمي في إعداد الدعاة والمربين.
- ٥- تشجيع الدراسات المقارنة بين المنهج التربوي القرآني والمناهج التربوية الحديثة، في ضوء مقاصد الشريعة.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

كتب التفسير:

- الطبري، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي. (المتوفى: ٣١٠هـ)، (٢٠٠٠م). جامع البيان في تأويل القرآن. تحقيق أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة.
- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد. (المتوفى: ٥٣٨هـ)، (١٤٠٧هـ). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل. ط١، دار الكتاب العربي: لبنان.
- الأندلسي، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية. (المتوفى: ٥٤٢هـ)، (١٤٢٢هـ). المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت.
- الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي. (المتوفى: ٦٠٦هـ)، (١٤٢٠هـ). مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير. ط٣، دار إحياء التراث العربي: بيروت.
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي. (المتوفى: ٦٨٥هـ)، (١٤١٨هـ). أنوار التنزيل وأسرار التأويل. تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي: بيروت.
- الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان. (المتوفى: ٧٤٥هـ)، (٢٠٠١م). تفسير البحر المحيط. تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود؛ الشيخ علي محمد معوض، زكريا عبد المجيد النوقي، أحمد النجولي الجمل، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت.
- الدمشقي، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي. (المتوفى: ٧٧٤هـ). تفسير القرآن العظيم. تحقيق: مصطفى السيد محمد، محمد السيد رشاد، محمد فضل العجاوي، علي أحمد عبد الباقي، مؤسسة قرطبة.
- البقاعي، برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر. (المتوفى: ٨٨٥هـ)، (١٩٩٥م). نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتب العلمية: بيروت.

- الشوكاني، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله؛ فتح القدير. (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، (١٤١٤هـ). الجامع بين
فني الرواية والدراية من علم التفسير. ط١، دار ابن كثير: دار الكلم الطيب: دمشق، بيروت.
الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي. (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، (١٤١٥هـ). روح
المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني. تحقيق: علي عبد الباري عطية، ط١، دار الكتب
العلمية: بيروت.
القاسمي، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم. (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، (١٤١٨هـ). محاسن التأويل.
تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية: بيروت.
رضا، محمد رشيد بن علي. (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، (١٩٩٠م). تفسير القرآن الحكيم. الهيئة المصرية العامة
للكتاب.
قطب، سيد قطب إبراهيم. (المتوفى: ١٣٨٦هـ)، (١٤١٢هـ). في ظلال القرآن. ط١٧، دار الشروق:
بيروت، القاهرة.
الخطيب، عبد الكريم يونس. (المتوفى: ١٣٩٠هـ). التفسير القرآني للقرآن. دار الفكر العربي: القاهرة.
ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر. (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، (١٩٨٤م). تحرير المعنى
السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد. الدار التونسية للنشر: تونس.
الشنقيطي، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني. (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، (١٩٩٥م).
أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن. دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت، لبنان.
الزحيلي، وهبة بن مصطفى معاصر. (المتوفى: ١٤٣٦هـ)، (١٤١٨هـ). التفسير المنير في العقيدة والشريعة
والمناهج. ط٢، دار الفكر المعاصر: دمشق.
كتب الحديث:
النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري. (المتوفى: ٢٦١هـ)، (١٣٣٤هـ). المسند الصحيح
المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. تحقيق مجموعة من المحققين،
بيروت، دار الجبل.
النوي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف. (المتوفى: ٦٧٦هـ)، (١٣٩٢هـ). المنهاج شرح صحيح مسلم
بن الحجاج. دار إحياء التراث العربي: بيروت.
العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل. (المتوفى: ٨٥٢هـ)، (١٣٧٩هـ). فتح الباري شرح
صحيح البخاري. دار المعرفة: بيروت.
الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين؛ بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم. (المتوفى: ١٤٢٠هـ). سلسلة
الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة. ط١، دار المعارف: الرياض.

البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله. (المتوفى: ٢٥٦هـ)، (١٤٢٢هـ). الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه. محمد زهير بن ناصر الناصر، ط ١، دار طوق النجاة: دمشق.

كتب أسباب النزول:

الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي. (المتوفى: ٤٦٨هـ)، (١٩٩٢م). أسباب النزول. تحقيق: عصام بن عبد المحسن الحميدان، ط ٢، دار الإصلاح: الدمام.

كتب علوم القرآن:

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر. (المتوفى: ٩١١هـ)، (١٩٧٤م). الإتيقان في علوم القرآن. المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب: مصر.

كتب الرقائق:

ابن القيم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين. (المتوفى: ٧٥١هـ). مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين. (١٩٩٦م)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط ٣، دار الكتاب العربي: بيروت.